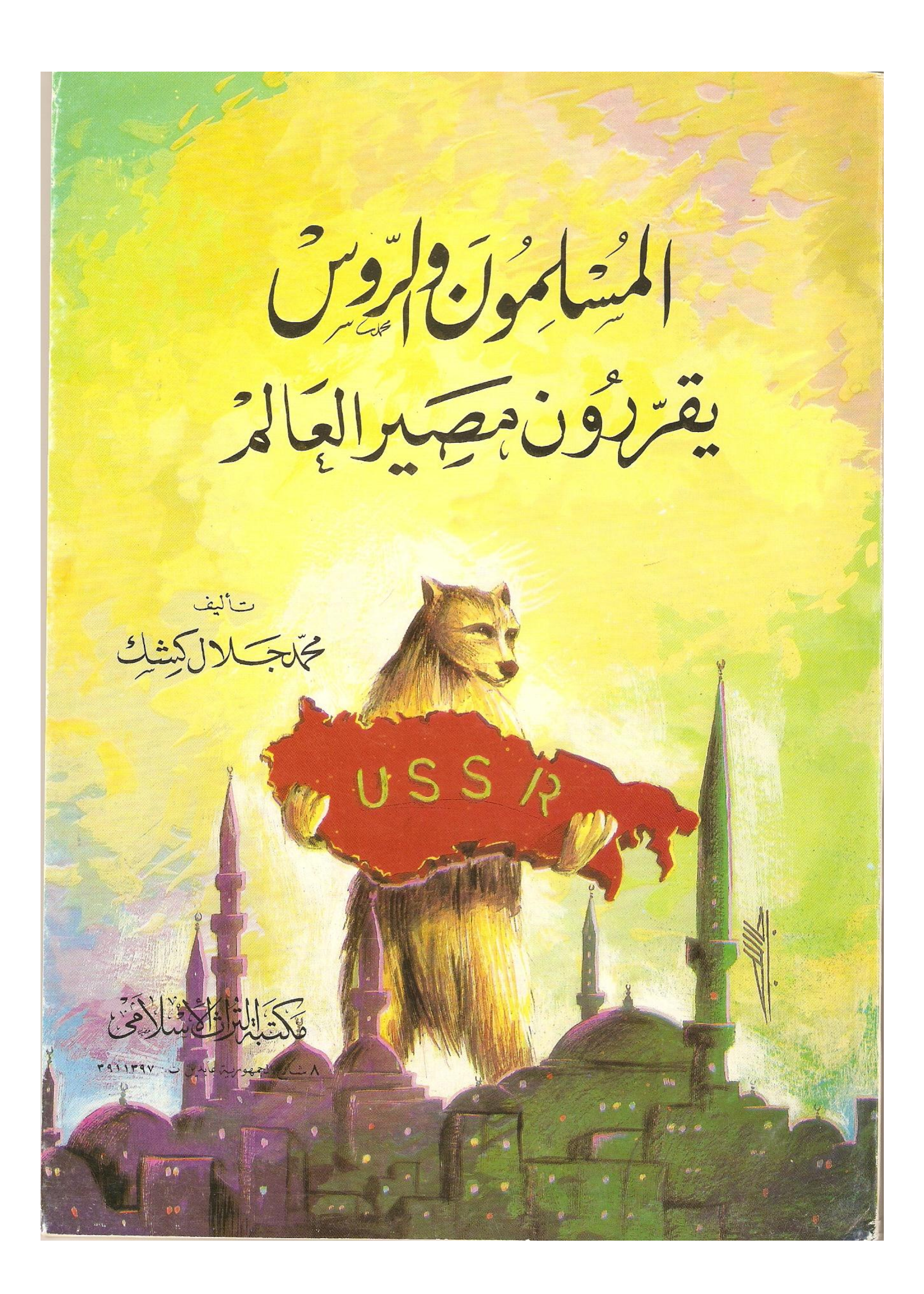
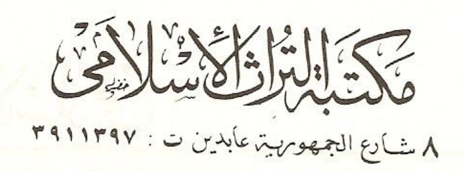

المسلمون والروس
يقررون مصير العالم
تأليف
محمد جلال كشك
USSR
مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

المسلمون والروس يقررون مصير العالم

محمد جلال كشك



٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م



مكتبة التراث الإسلامى
٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى البخارى .. ابن سينا .. الطبرى .. الخوارزمى .. أوغلو بك ..

إلى أحفادهم شهداء باكو ودوشانبى ..

إلى «الله شكور زاده» مفتى اذربيجان ، المؤمن القوى !

إلى الشباب المسلم فى تركستان الذى يجاهد لاستقلال بلاد المسلمين ...

وأيضاً إلى كل روسى يعرف أن الحرية لاتتجزأ فيقف مع كفاح الجمهوريات الإسلامية ..

مدخـــل

كنت أفضل ألا أكتب عما يجرى فى شرق أوروبا حتى ينتهى مهرجان الجهالة والتجهيل فى صحفنا ، ولكن ما جرى فى أذربيجان جعل الكتابة فرض عين ، فقد طرح بعداً جديداً للوضع العالمى كله ولما يجرى على المسرح من أحداث ، حاول البعض أن يزفها إلينا كفجر الحرية والسلام والديموقراطية لكل بنى الإنسان ! والغريب أنه ولا حتى هدير الدبابات فوق اللحم البشرى الحى فى باكو ودوشانبى ، استطاع أن يفقد هؤلاء غبطتهم ولا القدرة على التبجح بانجازات قيصر الكرملين ، وشرير البيت الأبيض .

ومهما بدا من نجاح مؤقت للدبابات الروسية ، فى فرض الهدوء والنظام ! فنحن نعتقد أنه هدوء مؤقت ، وان العاصفة قادمة . نعم ! العاصفة التى ستقرر مصير العالم وذلك من خلال المواجهة بين المسلمين فى الاتحاد السوفيتى والدولة الروسية .

ولو أن حديثى فى هذه الدراسة سيركز أساساً على مسلمى الاتحاد السوفيتى ، إلا أنه لابد من وقفة ولو سريعة ، حول ما يجرى فى شرق أوروبا ، أو ما يجرى بين العملاقين ؛ روسيا وأمريكا من تعاون وصل حد التواطؤ .. ما بين تحرير شرق أوروبا ، والتآمر على وحدة أوروبا ، والاعداد للجولة الحاسمة مع الصين واليابان أو شرق آسيا بشكل عام ، وأيضا سحق الحركة الوطنية فى مستعمرات روسيا المسلمة ، وأخيرا أو لعلنا نقول بداية ، الاتفاق على هجرة اليهود السوفيت ، أو بمعنى أصح تهجيرهم مباشرة إلى إسرائيل ، بالمخالفة لحقوق الإنسان التى تتم الهجرة باسمها ! إذ ان الهجرة اليهودية فى الماضى كانت تتم باعطاء اليهودى حق الهجرة للبلد الذى يريده والذى يقبله . فكانت نسبة كبيرة منهم تهاجر إلى أمريكا أو أوروبا الغربية حيث الحياة أفضل من إسرائيل . وخاصة أن الغالبية العظمى منهم تهاجر بغضا فى الاتحاد السوفيتى ونظامه الشيوعى ، المخالف أساسا لخلق اليهودى ومواهبه ، وليس حبا فى الكيبوتز الإسرائيلى ولا عشقا فى مناطحة حجارة الانتفاضة . ولكن إسرائيل تريد الهجرة إليها لبناء إسرائيل الكبرى ، وهى أيضا ان كانت تثير القلق لدول العالم ومواطنى هذه الدول من اليهود من أجل

اسقاط مواطنيتهم وتحت شعار حقهم فى الهجرة ، إلا أنها تعارض هجرة هؤلاء اليهود أو استقرارهم فى أى بلد آخر غير إسرائيل ، لأنه لو أمكن لليهود العيش خارجها فى حرية واطمئنان على ثقافتهم ودينهم ، لفقدت إسرائيل مبررها .

ولتحقيق هدف إسرائيل فى شحن اليهود إليها رغم أنوفهم ، وافقت أمريكا على الغاء البند الذى يصنف اليهود السوفيت على قائمة المضطهدين دينيا أو سياسيا والذى كان يعطيهم حق الدخول الفورى للولايات المتحدة بدون إجراءات طلب الهجرة . أما الآن وبعد هذا الترتيب الذى اتخذته أمريكا بايعاز من إسرائيل ضد اليهود أصبح على اليهودى الانتظار لعدة سنوات حتى يحصل على الموافقة على طلبه بالهجرة للولايات المتحدة أو حتى تأشيرة الدخول كسائح ووفقا للحصة المخصصة لكل بلد . أو يضطر مرغما للعبور من الباب الوحيد الذى ترك له مفتوحا ، واعنى الهجرة أو اللجوء إلى إسرائيل وحدها .

أما الجانب الروسى فقد تعهد بشحن اليهود رأسا إلى إسرائيل وكانت «التايم» قد نشرت فى (٨٥/١٢/٣٠) ونقلنا عنها فى «رسالة التوحيد» فى يناير ١٩٨٦ ما نصه : «تم الاتفاق على أساس نقل اليهود من روسيا إلى بولندا ومن هناك يشحنون رأسا إلى إسرائيل وقالت التايم : ان هذا التنظيم يقصد به منع تسرب أى مهاجر يهودى لبلد غير اسرائيل وقد صرح شيمون بيريز (أكرر شيمون بيريز وليس شامير) صرح من أربع سنوات : «إن مصلحة روسيا ومصلحة إسرائيل هى قصر هجرة اليهود الروس على إسرائيل» .

وكانت قد جرت مفاوضات مباشرة بين اليهود والروس قام بها ادنمار برونفمان رئيس المؤتمر اليهودى العالمى الذى زار الاتحاد السوفيتى فى ديسمبر ١٩٨٥ ومعه وعد من بيريز باشراك الروس فى حل مشكلة الشرق الأوسط مقابل عملية تهجير اليهود . وقد تبرعت فرنسا بالطائرات التى ستشكل الجسر الجوى لشحن اليهود السوفيت لإسرائيل » .

كتب هذا ونشر بالافرنجية والعربية ، فصادروا رسالة التوحيد وحكموا علىّ وأولادى بالسجن (ربما لأننا نشرنا ذلك ولأننى كنت أول كاتب عربى حذر من هجرة

اليهود السوفيت) ! ثم عدت ونشرته فى جريدة الوفد بتاريخ ١٩٨٦/٤/٢٤ وسأسمح لنفسى بنقل ما نشرته فى جريدة الوفد منذ أربع سنوات قلت حرفياً :

عن سيناء والناصرية

أهم قرار اتفق عليه الزعيمان جورباتشوف وريجان فى مؤتمر جنيف أو قل المطلب الوحيد الذى طرحه الامريكيون ؛ هو هجرة اليهود السوفيت لإسرائيل ، والذى تؤكد كل المصادر أنه سيكون الخروج الثانى بعد خروجهم من مصر زمن سيدنا موسى من ناحية العدد والأهمية . واغرب ما تم الاتفاق عليه هو ما نشرته مجلة التايم الامريكية ، وقتها ، عن شحن هؤلاء اليهود مباشرة إلى إسرائيل أى تسليمهم يدا بيد للحكومة أو النظام الإسرائيلى ، دون إعطائهم حق اختيار البلد الذى يهاجرون إليه أو حق الافلات من المشروع الاستيطانى الصهيونى ، وقالت المجلة الامريكية بالحرف الواحد «إن هذا التنظيم يقصد به منع تسرب أى مهاجر يهودى لبلد غير إسرائيل» (٨٥/١٢/٣٠) وهذه هى أضخم صفقة « عبيد » دبرتها دولة حقوق الإنسان التى فى مقدمتها حق الهجرة وحق اختيار الوطن . وقد جرت المفاوضات لهذه الصفقة قبل مؤتمر جنيف ، بل وكشرط له ، بواسطة «ادنمار برونفمان» رئيس المؤتمر اليهودى العالمى ، الذى نقل للروس تصريح شيمون بيريز : «إن مصلحة روسيا ومصلحة إسرائيل هى قصر هجرة اليهود الروس على إسرائيل» وتحقيقا لذلك فقد اتفق على إقامة جسر جوى بين روسيا وإسرائيل عبر بولندا ، وتبرعت فرنسا بالطائرات التى ستعمل على هذا الجسر لشحن يهود روسيا تسليم إسرائيل من الباب للباب ، وقيل ان الثمن الذى ناله الروس هو قبولهم كشريك وطرف أساسى فى الشرق الأوسط ، وربما الجلاء عن جزء من الجولان أو حتى كلها ، ولو بعد مائة سنة كما وعد الرئيس السورى فى خطابه الأخير .

المهم أنهم يقدرون عدد اليهود الروس الذين سيشحنون لإسرائيل بنصف مليون .. (تبين الآن أنهم خمسة ملايين !) ومهما فتشنا ، فلن نجد مكانا تريد إسرائيل أن تضعهم فيه إلا « سيناء » .. وإسرائيل لن تجد مبررا لغزو « سيناء » إلا قيام حكم « ناصرى » فى مصر يعلن «على الورق» الغاء كامب ديفيد ، ويعطى إسرائيل وأمريكا المبرر لإعادة

الوضع إلى ما كان عليه فى سبتمبر ١٩٧٠ ويعطى الحاكم المصرى المبرر لضرب الشعب باسم المعركة التى لن يخوضها ابداً .. وكل ما نراه حولنا وفينا منذ هذا المؤتمر ، من اثارة وتخريب وبعث للموتى هو مسلسل تنفيذ هذا المخطط الذى يهدف إلى توطين اليهود فى سيناء ! ..

وكما قلنا أكثر من مرة ان قرارات القمة ليست قدرا لا يدفع . ومادمنا نعرف هدف العدو فلا عذر لنا ان تركناه يتحقق ، وإذا كان الالتحام الديموقراطى بين الشعب والحكومة هو الملجأ الأول والأخير ، فإن من وسائل الدفاع اعتبار كامب ديفيد اتفاقية استنفدت اغراضها ، فتكف الأصوات العربية عن طلب الغائها ، وتكف القوى المخدوعة عن طلب السلام أو صداقة الامريكان فى ظلها فإسرائيل لا تريد السلام ، وتفضل عليه سيناء ، واليهود حكومة وشعبا ومهاجرين يؤمنون بان سيناء إسرائيلية اخذوها بالسيف واستردت منهم بالخديعة ولن يتخلوا عن ذلك حتى تكون بيننا وبينهم المقتلة التى وعدنا الله بها .. اما امريكا فهى فى الشرق الأوسط جزء لا ينفصم من إسرائيل .. فالتعلق بها وهم ، والثقة بوعودها تغرير بالنفس لابد من جولة خامسة وسادسة فى هذا الصراع المصيرى ، ولا حيلة لنا إلا الاعتماد على ذاتنا المصرية والعربية والإسلامية .. وان نقسم ليل نهار ، ان الناصرية لن تعود لمصر وإسرائيل لن تعود إلى سيناء .. ثم نعمل جادين للبر بهذا القسم » (ا هـ بحروفه من جريدة الوفد) .

كتبنا هذا وحذرنا منه فأنساهم الشيطان وبعد الهنا بسنة ، وازدادوا ثلاثا ، علا صراخهم ! ذلك أن قومى لا يتحركون أو بمعنى أصح لا يصرخون متظاهرين بالغضب إلا بعد أن يصل اليهود إلى مطار بن جوريون ! وبعضهم غضب لأن الاتحاد السوفيتى فعل ذلك مجانا .. !! وتؤكد الدلائل ان هذه الموافقة السوفيتية أو الرضوخ للمطلب الإسرائيلى الشاذ ، بمعنى « شحن اليهود » من الباب للباب وكأنهم العبيد أو الاغنام ، هذا الاتفاق العجيب ، المناقض لحقوق الإنسان والاعراف الدولية ، كان نقطة البدء التى فتحت الطريق أمام الاتحاد السوفيتى للمسالمة الشاملة مع الولايات المتحدة . وكما قال الأستاذ «أحمد كشك» أن جورباتشوف قد قبل العرض الذى رفضه السلطان عبد الحميد ، ففى مطلع القرن العشرين عرض اليهود على السلطان تسليمهم فلسطين

مقابل حل أزمة الدولة العثمانية المالية ، وضمان استمرارها ، ووقف حملة التشهير بها . فكان رد السلطان عبد الحميد هو ضربة « بالشلوت » للصهيونى الوقح الذى تجرأ على تقديم هذا العرض . وخلع عبد الحميد على يد « الثوار » وعقدت الصهيونية الصفقة مع بريطانيا ، ودمرت الدولة العثمانية ، واعطى الإنجليز فلسطين لليهود ، أما جورباتشوف فيبدو انه قبل شراء الامبراطورية الروسية بخمسة ملايين يهودى سوفيتى سيشحنون مرة أخرى ، كما كان هتلر يفعل بهم ولكن فى طائرات هذه المرة ، وإلى المعتقل الإسرائيلى .

وقد سبق أن قلنا إن مخطط إسرائيل لا يقتصر على إسكان اليهود الجدد فى الضفة والقطاع حيث الكثافة السكانية العالية والمقاومة المحتدمة ، بل قلنا إن عين إسرائيل على سيناء وعللنا بذلك عودة الناصريين وسيطرتهم على الحكم فى مصر لأنهم هم الذين اعتادوا تسليم سيناء لإسرائيل . كتبنا نقول إن النقطة الوحيدة التى اتفق عليها الروس والامريكان فى مؤتمر جنيف ١٩٨٥ هى تهجير اليهود رأسا من روسيا لتل ابيب ، وعودة الناصريين لمصر لخلق الاستفزاز المناسب لحرب أخرى تحصل فيها إسرائيل كما تتوقع على سيناء فأخذها البعض كنكتة ، ودخلوا لنا قافية . وهاهو المخطط تتضح ابعاده للعميان ، ولكن أصحابنا عمى القلوب عن قصد وسبق إصرار .

إسرائيل تتحدث علنا عن إسكان الفلسطينيين فى الأردن .. وكيف سيتحقق هذا إلا بحرب شاملة يعاد فيها رسم خريطة المنطقة فى ظل السيطرة الإسرائيلية المطلقة . وما الغرابة ؟ ألم يرسمها الإنجليز والفرنسيون والصهيونيون قبل سبعين سنة ؟! هل نحن أفضل الآن بكثير مما كان أجدادنا فى مواجهة خريطة سايكس بيكو ؟! أو هل نحن أكثر وعيا أو أقدر على مقاومة وعد جورباتشوف مما كان عليه « ثوار » الشريف حسين ــ لورنس فى مواجهة وعد بلفور ؟!

على أية حال السنوات الأربع التى انقضت منذ وعد جورباتشوف لم تبددها إسرائيل فى انتظار القادمين ؛ بل استمتعت ان لم نقل دبرت تلهية العرب بجهود السلام ، وإعلان الدولة الفلسطينية وحمل الممثلين للمنظمة لقب سفير دولة فلسطين ، ثم الانتصار العربى ــ الفلسطينى الذى تمثل فى قبول السفير الأمريكى فى تونس شرب القهوة مع

الفلسطينيين ، واستمزاج الرأى فى حالة الطقس ، بعد أن قص الفلسطينيون اظافرهم وغسلوا أيديهم ووجوههم ولعنوا الإرهاب ثلاثا ، بينما ينوه السفير الامريكى على الكفاح ويلعن معهم الإرهاب ، ويضع وردة على قبر أبو جهاد الذى قتلته ذراع «المقاومة المشروعة لإسرائيل الممتدة عبر البحار» ! اما كفاح الفلسطينيين ضد مغتصب ومقتحم وناسف بيتهم فهو ارهاب مستنكر !

وداخ العرب والفلسطينيون فى مباحثات السلام بأمل تحويلها إلى محادثات ! ولهثوا خلف المبادرات والشروط العشرة والتسعة والخلاف داخل إسرائيل والجناح المتطرف والجناح المتطرف جدا فى تحالف الليكود . بل لقد شنت عندنا حملة فى الاذاعة والتليفزيون والصحافة تؤكد أن حكاية الهجرة السوفيتية لإسرائيل اكذوبة يريد بها حكام إسرائيل تعطيل مسيرة السلام لأن إسرائيل مفلسة ولا تستطيع توطينهم .. الخ من التحليلات التى تكذب كل ما يقال عن نجاح المخلوع فى محاربة المخدرات ..

بل حتى الانتفاضة التى كانت المبادرة الصادقة من جانب الجماهير الفلسطينية للرد على خطر الهجرة القادمة ، وكانت بلا شك حلا عبقريا لشعب صقلته ابشع جريمة ارتكبت ضد شعب فى القرن العشرين كله ، ومن جيل لم يخضع لنظام عربى ولا سقته حكومة عربية بماء الذل باسم المعركة والقضية التى خانتها مثنى وثلاث ورباع ! وكانت الجماهير الفلسطينية موفقة فى اختيار الأسلوب والسلاح . واستطاعت أن تجذب انتباه العالم وأن تعيد القضية إلى ذاكرة الضمير العالمى الذى كان قد تغافل عنها بعد قرار وقف عمليات الخارج ، واستفزازات عمليات التنظيمات المحسوبة على الفلسطينيين والعاملة فى الحقيقة لكل ما يضرهم !

واستطاعت الانتفاضة أن تكشف الطبيعة القمعية للنظام الإسرائيلى ، وأن تفجر فى نفس الوقت تناقضا بين المؤسسة الصهيونية ، الفاشية الأسلوب ، الإمبريالية القيم ، وبين الضمير اليهودى ، الذى ينطق فى التوراة : «لأنك كنت مستعبدا مضطهدا عند فرعون فلا تستعبد ولا تضطهد شعبا» . الضمير اليهودى الذى كان قبل إسرائيل يعبر عن آلام المعذبين فى الأرض ، قبل أن تحوله الصهيونية إلى جلاد الشعوب العربية ، وسفاح

الشعب الفلسطينى .. أصحاب الضمائر الحية من اليهود ، استفظعوا ضرب الأطفال والنساء والشيوخ ، وهدم البيوت ، وانتزاع الفلسطينى من بيته وأرضه ، وتذكروا ما قرأوه عن هتلر ومحاكم التفتيش وعدوان المتعصبين الروس زمن القيصرية . وأغلب هؤلاء من المولودين فى إسرائيل . وربما كان استدعاء المهاجرين الروس ، يهدف ضمن ما يهدف ، إلى اغراق صحوة الضمير هذه . لأن المهاجر لا يفكر إلا فى تأمين مأوى له ولعائلته . ولا يعنيه أن يكون هذا المأوى لإنسان آخر ، بل على العكس فهو يكره هذا الآخر ويحتقره ليبرر لنفسه اغتصاب حقه . المهاجر القادم ليستوطن ، هو دائما أكثر شراسة وعدوانية .

وكالعادة هلل العرب للانتفاضة وسلخوها شعرا ونثرا ومسرحا وخطبا وبيانات للاستهلاك المحلى وأحيانا للارتزاق الشخصى جدا .. وأوهموا شعوبهم وأنفسهم أنها تستطيع وحدها أن تحرر فلسطين وبالحجارة !

وهكذا يبدو أنه حتى الانتفاضة ، استغلتها إسرائيل فى تلهية العرب ، بل لا أدرى هل أقول إن إسرائيل نجحت فى أن تكرر من خلالها الدمار الشامل للاقتصاد العربى فى الأرض المحتلة كما حدث فى أعقاب اضرابات ١٩٣٦ تمهيدا واعدادا لما يسمونه إسرائيل الثانية لأن المهاجرين القادمين يفوق عددهم مجموع ما هاجر إلى إسرائيل منذ وعد بلفور إلى كامب ديفيد ! لا أدرى ، ولا العرب يدرون بل هم كما وصفهم خيرى الهنداوى فى حرب البلقان سنة ١٩١٢ :

ياهذه كفى الدعاء فقومنا
لو تعلمين عن الدعاء نيام
لا تستغيثى ليس معتصم بنا
كلا ولا فينا بعد همام
ماتت عواطفنا بموت رجالنا
فجميعنا بمماتها أيتام !

جاء وعد جورباتشوف ليكشف أننا بعد كل ما قلناه عن أنفسنا منذ وعد بلفور ، لا نزال الأمة المقهورة التى تقسم اسلابها فتتساءل عاجزة : ما العمل .. ما المطلوب ؟! روسيا استنكرت وأمريكا اكدت أنها ترفض توطين المهاجرين الجدد فى أرض الفلسطينيين . عداهم العيب !! أين يسكنون وكيف أنتم تمنعون ؟! لا جواب .

فنحن لم تعد لدينا أية أوراق نساوم بها فى الساحة الدولية ، لم يعد بوسعنا أن نعيش على عمولة بيع هذه الدولة لتلك ، أو بيع ولائنا مرة لهذه ومرة لضرتها ، كما تعودنا منذ أيام عبد الناصر . وليس لدينا قوة ذاتية ، ولا حتى موقف موحد يمكن احتسابه فى إستراتيجيات الدول ..

ماذا لدينا ؟

بل العجيب أن الإتحاد السوفيتى يتمتع بتأييدنا بعد أن خاننا .. وكنا من قبل نكيد له ، ونرمقه شذراً ، ألا تلاحظون كيف كنا ضده فى حرب افغانستان وكيف أصبنا بالبكم وهو يذبح شعب اذربيجان .. وتفسير ذلك ليس على العقل بعسير . أمريكا كانت ضد الاحتلال الروسى لافغانستان وهى إذا غضبت ، غضب لها مائة ألف محب .. لا يسألونها فيم غضبت ، ولكن أمريكا اليوم راضية عن جورباتشوف ومذابحه واللى يرضيك يرضينى . فلماذا تضيع روسيا وقتها فى كسب رضاء الصبيان مادامت تستطيع أن تشتريهم من المعلم رأسا ؟!

البعض يدق طبول الحرب ، وهو عين ما تريده إسرائيل ، لأن أحدا مهما كانت سخافته لا يستطيع أن يزعم قدرتنا على هزيمة إسرائيل لو نشبت الحرب اليوم — وفى ظل الوضع العربى الحاضر — وبعد صفقة جورباتشوف التى وضعت الاتحاد السوفيتى فى عربة واحدة مع أمريكا تسوقها إسرائيل !

الحرب المطلوبة ، ونقول المحتومة ، سيحمل عبئها الشعب المصرى بالطبع ، ولو تتبعنا ما جرى ويجرى منذ فترة لخيل لنا — وربما كان ذلك صحيحا — أن هذا الذى يجرى محسوب ومخطط فى اطار ابعاد الشعب المصرى عن هذه الحرب أو ضمان تخاذله فيها لو جر إليها ! فالمعاملة الوحشية المذلة للعمال المصريين لم يقصد بها إلا تنفير هذا

المصرى من العرب واحباط أية محاولة لاقناعه بشن هذه الحرب التى يدعونه لها (وكتب أحدهم يدافع عن العراق فى مجلة عربية تصدر فى لندن ، يقول : إن العرب غير مسئولين عن اطعام المصريين الذين لا يستطيعون ضبط تناسلهم !) والتهديدات الحبشية والمؤامرات فى السودان والفتن داخل مصر والقمع الوحشى للشباب الأقدر على الحماسة المطلوبة فى المواجهة مع الاستعمار اليهودى . كل هذا يضعنا فى أجواء الهزائم السابقة . وربما كان أهم من ذلك كله اعتصار الجماهير اقتصاديا وإذلالهم بالفقر والحاجة حتى لا يبقى مجال لتفكير فى كرامتهم فضلا عن كرامة وحقوق الأشقاء ! نفس أجواء ١٩٦٦/١٩٦٧ فليست مذبحة شركات الأموال إلا تكراراً للجان تصفية الاقطاع التى عبأت الشعب لهزيمة ١٩٦٧ ويمكن أن نمضى فى المقارنة فالتيار الإسلامى كان مضروبا فى ١٩٦٦ واليسار كان متربعا فى الاعلام تماما كما هو الحال اليوم ، ودين الجماهير يتعرض لاستفزازات غريبة لا يمكن أن يقدم عليها أو يسمح بها عاقل إلا بقصد إذلال الجماهير وتبغيضها فى وطنها ! ومهما قيل عن الأخطاء الداخلية التى يرتكبها المستشارون الناصريون إلا أن العرب يتحملون مسئولية كبيرة بوقوفهم موقف المتفرج على تدهور الوضع الاقتصادى فى مصر . ولا نريد أن نناقش ما أنفقته مصر وما حرمت من استثماره بسبب قضية فلسطين ، ولكن إذا كان العرب جادين فى الإحساس بالخطر الإسرائيلى ، يرغبون حقا فى مواجهته فليخلصوا مصر من ورطتها الاقتصادية . وكنت قد تقدمت فى جريدة الوفد (١٩٩٠/١/٢٧) باقتراح لدعم مصر ماليا ،لا من الأموال السائلة التى يمتلكها العرب ولا من الاستثمارات الموظفة لحساب الأجيال القادمة عندما ينفد النفط بعد مائة سنة ، ولا حتى بتخصيص حصة من الإنتاج الحالى ، بل من المدفون تحت الأرض ، برفع الإنتاج بنسبة معينة لكل دولة ، وتخصص هذه الزيادة لمصر لإخراجها من الوهدة الاقتصادية التى تردت فيها . ونحن نزعم أنه لو اتخذ العرب هذا القرار أعنى زيادة إنتاجهم مليون برميل وتخصيصه لمصر .. لو اتخذ هذا القرار لتغيرت نظرة العالم لهم بل ولتغيرت خريطة الوضع لصالحهم .. بمجرد صدور القرار .. ولكن هيهات !

فلندع أمه منهارة تجمعت فيها كل عناصر الفناء تعوى بغثاء السيل وتتلفت حائرة تبحث عن من تشكو له ، وقد خانها الجميع يوم خانت نفسها .

ونعود لحديث أذربيجان فنقول فى عجالة ، ان ثورة المسلمين فى الاتحاد السوفيتى تواجه ثلاثة إحتمالات :

* ان يقمعها الدب الروسى كعادته وفى هذه الحالة لابد من سقوط الجورباتشوفية على جثة جورباتشوف أو بيده .

* ان تستقل هذه الجمهوريات الإسلامية رغم أنف الاتحاد السوفيتى وهذا فى اعتقادى لن يتم إلا فى حرب شاملة بينه وبين الصين . وفى هذه الحالة لن يكون الاتحاد السوفيتى دولة عظمى . هذا إذا امتنع عن استخدام الأسلحة النووية وقبل الهزيمة التى ستعيد حدود روسيا إلى ما قبل عهد إيفان الرهيب . ولايمكن أن نستبعد هنا مخاطر حرب عالمية أو كارثة نووية !

* ان تكون حركة الإصلاح الديموقراطى فى الاتحاد السوفيتى من العمق بحيث يقبل المواطن الروسى للمسلمين فى الاتحاد السوفيتى ما يريده لنفسه فيعترف باستقلالهم بل ويخوض معهم حرب هذا الاستقلال ضد الشوفينيين الاستعماريين الروس كما فعل الأحرار الفرنسيون مع الجزائريين ومن ثم ينبثق بعد النصر كيان جديد هو الاتحاد الحر المتكافىء بين الروس والمسلمين ويومها سيشكلون أكبر قوة فى العالم ؛ القوة التى تملك الكلمة الفاصلة فى تاريخ الإنسانية لعدة قرون .

وأنا اعترف أن الاحتمال الثالث هو الأبعد حالياً ، ولكنه يشكل إمكانية مستقبلية .. وألح عليه المسلمون فى الاتحاد السوفيتى لأكثر من مائة سنة ، ولوح به الروس فى كل مرحلة من تاريخهم ثم خانوا العهد فور انتهاء أزمتهم ..

ومهما يكن فنحن نرى مصلحة مشتركة فى قيام علاقة جديدة بين المسلمين والروس ، ونرى إمكانية ذلك .. من ناحية : لأن أوروبا الغربية التى نتوقع أن يلعب فيها الفاتيكان دورا أكبر ، والتى إذا استكملت وحدتها ، وتطلعت لاستئناف دورها التاريخى فلابد أن تكون محكومة بتراثها الصليبى ضد الإسلام والعرب ، وأيضا مصالحها الجيوبوليتيكية فى رفض قيام دولة قوية فى جنوب أو شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهى قد تعارض سيطرة إسرائيل على هذه المناطق التى تعتبرها تاريخيا ، مجالها الحيوى ، ولكن ليس إلى حد بعث الإسلام .

أما الولايات المتحدة فهى العدو الشرس للإسلام ، من ناحية بتأثير الكنيسة البروتستنتية النشطة بل المحمومة فى عدائها للإسلام ورغبتها فى القضاء عليه . ومن ناحية بتأثير السيطرة الصهيونية على سياستها وبالذات الكونجرس والاعلام ..

فإذا أبحرنا نطلب العلم والعون من الصين واليابان سنجد أن الأولى مازالت غير قادرة على فرض ارادتها على الوضع العالمى ولابد أن تحسم مصيرها مع الروس أولا .. والثانية غامضة السياسة إزاء العالم الإسلامى ، غير مستقرة — بعد — على السياسة التى ستتبعها إزاء الولايات المتحدة وبالتالى الاتحاد السوفيتى ، وبقية القوى العالمية .

يضاف إلى ذلك العلاقة التاريخية بين الإسلام والروس والتى تصل إلى ثمانية قرون ، مريرة حقا إلا انها خلقت تعارفها وتشابكاتها . والإسلام كما قلنا هو اعرق أديان الاتحاد السوفيتى .. وروسيا بحاجة ماسة إلى علاقات طيبة مع هذه الجمهوريات الإسلامية ومن ثم يجب أن تكون فى علاقة طيبة مع العالم الإسلامى .. ونعتقد أيضا ان الجمهوريات والعالم الإسلامى يستفيدان من قيام علاقة الندية مع الروس إذا ما تخلى الروس عن احلامهم الإمبراطورية وكفوا عن عداء الإسلام أسوة بعودتهم إلى المسيحية .. وكل هذه مجرد تأملات أما الكلمة الفاصلة فللتاريخ الذى تكتبه الشعوب .

على أية حال .. فلتكن الصفحات التالية هى مجرد محاولة لفهم التاريخ ، والتعرف على ما يجرى والتفكير بصوت عال عما نخشاه ونرجوه فى المستقبل . ثم الأمر لله من قبل ومن بعد .

القاهرة

رمضان ١٤١٠

ابريل ١٩٩٠

محمد جلال كشك

التواطـؤ الروسي ـــ الامريكي

التطورات التى تمت وتجرى الآن فى الاتحاد السوفيتى ، تختلف عما يجرى فى شرق أوروبا ، وما جرى ويجرى فى باكو المسلمة .. وإن كانت كلها فى إطار الإستراتيجية الجورباتشوفية ـــ الريجانية التى ينفذها بابداع خلفه بوش .. ومرة أخرى انقل مما كتبته فى يناير ١٩٨٦ عندما قلت : «الحقيقة أنه ليس بين روسيا وأمريكا ما يحتم حرب الكواكب أو يبررها ، بل إن أسباب العداء بين روسيا وأمريكا هى الأقل بين الدول العظمى ، فما من تناقض قومى أو جذرى لا يجبر بينهما . بعكس التناقض الأمريكى ـــ اليابانى مثلا فهو تناقض أكثر جذرية واعسر على العلاج حتى ليبدو أن لا حل له إلا بتحطيم أحد الطرفين للآخر ، فإما أن تتمكن اليابان من تحطيم قدرة أمريكا الاقتصادية سلميا ، كما تفعل الآن ، أو بالأصح كما تولول أمريكا متهمة اليابان بذلك ، أو أن تحطم أمريكا قدرة اليابان بضربة عسكرية مباشرة ، أو بخلق عدو لليابان يجبرها على الانفاق العسكرى الذى يستنزف طاقتها ويبرد اقتصادها ويبعدها عن السوق الأمريكية . ولا أظن أن اليابان ستستطيع الابتعاد طويلا عن سباق التسلح ، إزاء التواطؤ الامريكى ـــ الروسى . فهى تعرف أن بعض الدوائر فى أمريكا تتحدث علنا عن توجيه ضربة للصناعات اليابانية ، ولنتذكر أن القنبلة الذرية الامريكية استخدمت ضد اليابان وليس ضد روسيا . بل إن أمريكا لم تدخل حربا قط ضد روسيا . وفى نفس الوقت للروس ثأر قديم عند اليابانيين من أيام حرب ١٩٠٥ ولليابانيين أرض يحتلها الروس ..

والتناقض بين روسيا والصين ، هو تناقض قومى ، لا حل له إلا بحرب ذرية تشنها روسيا مباشرة على الصين ، أو من خلال الهند وفيتنام ، لأن الصين لا تستطيع النمو بدون الاستيلاء على سيبيريا التى تعتبرها من أراضيها التى انتزعها الروس فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، مع أن سيبيريا أصلا لا صينية ولا روسية بل كانت مقاطعة من بلاد المسلمين . والصين تشكو من كثافة مرعبة فى السكان ، وسيبيريا خالية تقريبا من

السكان ومعروف تاريخيا انه كلما تجاور بلدان بهذا الحجم تضاعفت احتمالات الحرب بينهما .. وإن كانت الصين تحاول تأجيل هذه الحرب حتى يكتمل استعدادها ، وتحاول روسيا استفزازها لضربها قبل أن يتم هذا الاستعداد ، وخلال ذلك تحاول تطويقها واستنزافها بالهند وفيتنام .

أمريكا تخشى مزاحمة أوروبا الغربية فى الأسواق أكثر مما تخشى الروس ، فليس فى الأسواق سيارة مرسيدس روسية ولا بيجو ولا تويوتا ولا حتى جاكوار أو سيارة فى مستوى هوندا الكورية تزاحم بها روسيا ، السيارات الأمريكية ! بل لا توجد صناعة روسية منافسة للتصدير لا حجما ولا كما ولا عند الروس البنوك التى تنافس بنوك أمريكا فى جذب أموال دول النفط أو المهربين والهاربين من شعوبهم .. وأوروبا العائدة للشرق الأوسط تشغل بال أمريكا أكثر من روسيا ، وأوروبا بدورها تخشى أمريكا أكثر من روسيا ، بل ان تعاون الإنجليز والروس فى بعض مشيخات الخليج يعد تعاونا مثاليا !

وربما يكون الاتحاد السوفيتى ، هو الدولة الصناعية الوحيدة التى لا تشكو أمريكا من العجز فى الميزان التجارى معها ! .. بل بالعكس ان شراء الروس للقمح الأمريكى يخفف احتمالات «كارثة» زراعية فى الولايات المتحدة وخاصة فى ظروف الأزمة الحادة التى تواجه الزراعة والمزارعين الامريكيين . بل إن التعامل التجارى بين موسكو ووشنطن شكل نموذجا للعلاقات الاستثمارية التى يمارسها الكبار مع الصغار .. هكذا : الدول العربية النفطية تبيع النفط لأمريكا وأوروبا واليابان وتحصل منها على الدولار .

وبالدولار تشترى السلاح من روسيا ..

روسيا تعيد الدولار لأمريكا مقابل القمح ..

فتكون أمريكا قد حصلت على النفط بفائض القمح .. الذى يشكل عبئا اقتصاديا عليها لوفرة إنتاجه عن حاجة السوق فى الدول الصناعية الغنية ، وعجز الدول الفقيرة عن توفير ثمنه .

وروسيا حصلت على القمح ، بالسلاح الخردة الذى كان سيلقى فى سيبيريا إذا لم يجد من يشتريه لأن السلاح سلعة غير معمرة لابد من التخلص منه إذا تخطاه سباق

التكنولوجيا . وبدلا من سيبيريا يُلقى فى صحراوات العرب ، فهى أسرع فى إهلاكه . وبعضه يستخدمه العرب فى تقاتلهم بعيداً بعيداً عما يضر مصالح الدولتين أو يمس أمن إسرائيل .

ومن ثم فالتناقض الأمريكي ــ السوفيتى ، ليس تناقضا مصيريا ، أى لا حل له إلا بزوال أحد الطرفين أو زوالهما معا ، بالعكس هو التناقض العرضى الأسهل والأقرب للجبر والمواءمة .. والتعايش ! خاصة وقد أعلن جورباتشوف التنازل عن الخلاف الايديولوجى واعتذر عن مقولة أو إنذار خروشوف : إن الاشتراكية ستدفن الرأسمالية بعد الشر وهل تحلو الحياة إلا بهامبرجر وكوكاكولا الرأسمالى ؟!

الوضع فى أوروبا لا يرضى العملاقين .. أوروبا الغربية تزداد قوة وثراء مستفيدة من التناحر الامريكى ــ الروسى . ومع قوتها وتضامنها ، يزداد تمردها على الأمريكان ، ومحاربتها للإنتاج الأمريكى ولو بالحرب الجمركية ، وسياسة الاغراق ، والضغط على الدولار ، ومهاجمة السياسة الأمريكية ، بل ومغازلة الروس على جميع المستويات من الاتفاقات السياسية والتجارية إلى المظاهرات فى الشوارع ضد القواعد النووية والوجود الأمريكى فى أوروبا ، هذا الوجود الذى يفترض فيه أنه لحماية أوروبا من الخطر الروسى !

ومعروف أن أوروبا الغربية تعلق آمالها فى الازدهار وتجنب الاختناقات الاقتصادية خلال ما بقى من هذا القرن ولسنوات عديدة فى القرن الحادى والعشرين ، تعلقها على السوق الروسية ، التى تمثل لأوروبا وأمريكا واليابان .. السوق المثالية للتقنية المتقدمة التى تتميز بها هذه الدول ، فالاتحاد السوفيتى بتعداده الضخم ومساحته الشاسعة وموارده ، يتسع ويقدر على تمويل المشاريع الجبارة مثل خط نقل الغاز من سيبيريا إلى أوروبا الغربية ، وأهم من ذلك لأنه أكثر تقدما من دول العالم الثالث فهو المستهلك للتكنولوجيا الشديدة التقدم التى تصدرها هذه الدول مثل الكمبيوتر والإليكترونيات والموصلات وغيرها . والتى لا سوق لها فى دول العالم الثالث المتخلفة .. فالتسابق هو على روسيا وليس ضد روسيا ، روسيا والصين ودول شرق أوروبا هى المجال الحيوى

الآن للدول الصناعية الرأسمالية أمريكا ــ أوروبا الغربية ــ اليابان . وقد استفاد الأوروبيون من التأزم السياسى بين أمريكا والروس ، فسجلوا سبقاً فى أسواق روسيا ، وهو ما استهدف الوفاق الروسى ــ الامريكى معالجته ..

وهكذا يمكن ان نرسم خريطة الوضع العالمى عشية وصول جورباتشوف للسلطة كالآتى :

* أمريكا وروسيا مستنزفتان فى مواجهة محمومة ، استهلكت مواردهما فى التسلح والحرب السرية والحرتقات العلنية .. مما أدى إلى تخلفهما اقتصاديا . وزاد الأمر سوء بفوز الجمهوريين فى أمريكا وقرارهم دخول عصر حرب الكواكب ، وما تتطلبه هذه الحرب من تخصيص ميزانية أسطورية ، تهدد بافلاس الاتحاد السوفيتى وأمريكا معا .

وهكذا اتفق العملاقان على إنهاء الصراع غير المبرر بينهما ، والذى كان استمراره فى السنوات الأخيرة لحسابات داخلية وليست خارجية فالقيادة الفاسدة الديكتاتورية فى موسكو بحاجة إلى عدو خارجى تخيف به الشعب ، وتمنع الحريات وتبرر به ديكتاتوريتها وتخفى سرقاتها تحت شعار : لاصوت يعلو على صوت المعركة . وما من دولة أخرى يمكن اقناع الروس بخطرها على الوطن إلا دولة فى حجم أمريكا لذا كان العدو الأمريكى المزعوم ، ضرورة لاستمرار الديكتاتورية والفساد فى العالم الشيوعى . ونفس الشئ عن تجار السلاح فى أمريكا سواء الرأسمالية التى تصنعه أو البيروقراطية التى تشتريه .. تحت مبرر مواجهة الخطر الروسى .. ولعلنا نذكر الميزانية الفلكية التى طالب بها البنتاجون فى عهد ريجان وقبل الانفتاح الروسى . (قدرها جورباتشوف بثلث تريليون أو ٣٠٠ ألف مليون دولار وقال إن ثلثى هذا المبلغ مقترض من الخارج) . وقيل إن الوفاق كبد تجار السلاح الامريكان خسارة ٣ مليارات دولار فى عام واحد ، ومازلنا فى البداية ، كان شعار الروس قادمون ضروريا لاستمرار اقتطاع هذا الكم الرهيب من دخل وكدح المواطن الأمريكى وتحويله للاحتكارات الامريكية العاملة فى صناعات الدفاع .

وهكذا كانت البداية هى الاعتراف بالحقيقة التى طال تزييفها ، وهى أن الصدام غير محتوم وأن الخطر هو من صنع أصحاب المصالح فى البلدين . وأن نسبة الوهم فيه ترجح

نسبة الحقيقة ، وبدء الاتفاق على إنهاء هذا الوضع .

وكانت الصفقة اليهودية هى عربون المحبة وشرط التواطؤ . ويمكن القول إن الاتحاد السوفيتى كان أكثر من راغب فى تنفيذ هذه الهجرة ، من ناحية ، لأنه بذلك التهجير يحل مشكلة مزمنة فى روسيا ، هى التخلص من اليهود ، الأمر الذى يرغب فيه الروسى من أعماق قلبه ، ومنذ أيام روما الثالثة ! بل هو الحل ـــ الامنية الكامن فى أعماق الأوروبى عامة وإن انكره ألف مرة . التخلص من اليهود بتصديرهم ، وهو الحل الذى انجز بنجاح فى أوروبا الغربية ، بعد أن مهدت له مذابح هتلر . وهاهو جورباتشوف يكمل تحرير بقية أوروبا أو تطهيرها من اليهود ..

وتهجير اليهود ، يشكل ، أيضا ، مصلحة أمنية عليا للدولة السوفيتية ، فقد أصبح اليهود يشكلون قنبلة زمنية فى احشائها ، ينظر إليهم كعيون وعملاء للولايات المتحدة على جميع المستويات . وأيضا لأن هذه الهجرة من روسيا ، كفيلة فى ظروف التواطؤ الدولى بخلق رأى عام داخل إسرائيل يرتبط بروسيا فى اللغة والعادات والتاريخ ، ولابد أن تزول العداوة السياسية ، مع الزمن ، وتتغلب العوامل الموروثة تاريخيا .. وقديما قلت إن إسرائيل ستكون فى القرن الحادى والعشرين ، القلعة المتقدمة لروسيا فى الشرق الأوسط .. وسنرى ماذا سيفعل الملايين الروس الخمسة فى خريطة إسرائيل البشرية ، على الأقل ستصبح الروسية وليست الإنجليزية لغة إسرائيل الثانية ! ويخيل إلى ان المهاجرين الروس بحكم ظروف حياتهم فى روسيا سيقبلون أجورا أقل ، ومتطلبات حياة أقل ، الأمر الذى قد يؤدى إلى طرد اليهود القادمين من أمريكا والغرب عموما ، فيهاجرون من إسرائيل، ويتغلب القادمون من روسيا والعالم العربى .

* اعترفت روسيا وأمريكا بخطر نمو قوة أوروبا الغربية واتجاهها للوحدة ، وما يشكله هذا من تهديد لمكانتهما ومصالحهما . وقد عالج العملاقان الخطر الأوروبى ، بأن القوا بداخله بالقنبلة الألمانية ، هدوا سد يأجوج ومأجوج فخرج الألمان من كل حدب يصنعون وينتجون وبالوحدة يطالبون .. ودب الفزع فى أوروبا التى يصعب أن ترحب بالوحدة مع ألمانيا الموحدة .

وأصبحت المعادلة الصعبة هى : المانيا الغربية لاتستطيع أن ترفض مطلب الألمان فى الاتحاد ، وأوروبا لا تطيق المانيا الكبرى لأن أوروبا الموحدة ستكون فى هذه الحالة مجرد منطقة نفوذ لها ، وسوقا لمنتجاتها ، خاصة وأن اتحاد شطرى ألمانيا يعنى استعادة كل المناطق الألمانية التى اقتطعت منها بعد الحرب العالمية الثانية ـــ ولو بعد حين ـــ كما حذر شيوعى ألمانى ، كان يلفظ أنفاسه الأخيرة فحاول أن يستعدى أوروبا ضد وطنه ليطيل فى عمر نظامه وفساده وسلطانه ولو بخيانة وطنه !

ومهما نالت بولندا من ضمانات لحدودها ، فأغلب الظن انها فى النهاية ستقبل بضمانة لوارسو ! وستتنازل طوعا أو كرهاً عما اقتطعته من ألمانيا أو بالأحرى ما اقتُطع لها من الفريسة التى تكالبت عليها الأسود ونهشتها الذئاب . وهانحن نسمع عن شبق الألمان فى تشيكوسلوفاكيا للوحدة الكبرى !

وبذلك يمكن القول بكل اطمئنان ان الوحدة الأوروبية تواجه الآن اخطر مرحلة فى تاريخها منذ كانت حلما فى خاطر ديجول الذى تصورها تحت الرعاية الفرنسية ، لأنه خطط أو تصور إمكانية ابعاد بريطانيا عنها ، وابقاء المانيا مقسمة إلى الأبد ولكن هاهى بريطانيا تعود ، والمانيا تتوحد ، وعلى فرنسا أن تقبل بالمركز الثالث أو تستعد للحرب الرابعة مع ألمانيا ! وإن كانت بريطانيا وبالذات تاتشر التى يبدو ان جورباتشوف قد فتح لها قلبه ، أو لعلهم الأمريكان ، ومن ثم كانت تعلم بما يدبر ضد أوروبا من خلال توحيد ألمانيا ، ولذلك بدأت «تزرجن» فجأة وترفض التوحيدات المالية ، حتى انفجرت القنبلة . وإلى أن تحل أوروبا وألمانيا هذه المعادلة الصعبة ، تتنفس الصناعة الأمريكية الصعداء . ويعيد الروس ترتيب جناحهم فى «بيتنا الأوروبى المشترك» .

كذلك فإن انهاء الحماية الروسية على شرق أوروبا كفيل باثارة الصراعات بين الدول الغربية على حصة كل منها فى هذه الدويلات . ولنذكر أن خروج هذه الدويلات من تحت عباءة الدولة العثمانية فى مطلع القرن العشرين فجر الحرب فيما بينها ، ثم على نطاق أوروبا كلها . فهى ليست دولا على طراز غرب أوروبا حيث للقومية الواحدة وطن محدد ، بل هى تجمع للعديد من القوميات والأديان . رسمت خرائطها وفقا لتوازنات

الدول الكبرى ومواقع الجيوش وهكذا مرت الحدود فى قلب القوميات والشعوب والمذاهب واللغات . وكلما نالت احدى هذه الدول استقلالها هبت تسترد ما تعتبره القومية الكبرى فيها ، أقاليمها المغتصبة ! وتسعى لتحقيق الوحدة أو تحرير بنى جنسها الخاضعين للقوميات الأخرى فى البلدان المجاورة ، ولا يفوتها أن تنكل بالأقليات الخاضعة لسلطتها ، وهذه بدورها تنتهز فترة اهتزاز الدولة فتطالب باستقلالها أو الوحدة مع بنى جنسها أو دينها ، فتنشب الثورات والحروب ، وتجر دول أوروبا الكبرى إلى الساحة ، وهكذا فى حالة التحرر من العثمانية اعقبت حروب البلقان ، الحرب العالمية الأولى . وهو ما يمكن أن يحدث بعد التحرر من الشيوعية ، والحرب ناشبة فعلا بين الصرب والألبان وبين الرومانيين والمجر .. الخ .. ولا تكاد توجد دولة فى أوروبا الشرقية ليس فيها مشكلة قومية ، وهذا كله يشغل أوروبا ، ويطلق يد الجبارين فى موسكو ووشنطن .

ومن العبث تصور أن ما حدث فى شرق أوروبا هو ثمرة كفاح الشعوب .. الخ .. بل هو قرار اتخذ وراء الكواليس بين العملاقين ، فأمر جورباتشوف بالقاء عملائه فى صندوق الزبالة .. بعضهم قفز من تلقاء نفسه إلى صندوق القمامة ، وبمجرد الإشارة ، بعدما تحول إلى إنسان آلى مصمم على الطاعة ولو صدر الأمر إليه بقتل نفسه ، لأطاع لا يسأل عن السبب . وبعضهم كانت مؤخرته قد التصقت بالكرسى فاحتاج إلى عملية جراحية لانتزاعه من فوقه ، وبعضهم القى هو والكرسى من حالق ، أو أشعل فيه النيران .. وهذا هو الأسلوب المعتاد من الكبار فى معاملة عملائهم الصغار .. يرفع الوصى يده ، فيفتح التنور الذى يغلى بسخط الشعوب وتخرج هذه الشعوب من القمقم الذى حبسها فيه الطاغية فتلتهم الفريسة التى القيت لها .. وتسعد فترة بالرضا عن النفس والتغزل فى قوتها وصلابتها وانتفاضتها ، وتطفىء حقد السنين بدم الطغاة الساقطين .

* فى الشرق الأقصى المصالح مشتركة ، أمريكا كما قلنا تعيش حالة حرب مع اليابان لا ينقصها غير دوى المدافع . وهى أيضا تنظر بقلق شديد لعملية التصنيع التى تتم بسرعة مذهلة فى دول شرق آسيا مثل كوريا وتايوان وسنغافورة .. والصين طبعا . وكما قال سياسى كورى «لقد كان تصنيع اليابان ، غلطة ارتكبها العالم الصناعى ولن يسمحوا بتكرارها» يقصد أن الدول الصناعية التى تركت اليابان تحقق ثورتها الصناعية ، وتصبح

مزاحما إلى حد الموت ، هذه الدول الصناعية غير مستعدة لتكرار هذه الغلطة بالسماح باتمام تصنيع دول مثل الصين أو كوريا أو البرازيل . وعلى هذه الدول أن تنتزع حقها فى التصنيع بالحديد والنار والصبر على ما لا يطاق ، وسنسمع الكثير عن الاضطرابات فى هذه الدول بمجرد أن تتفرغ لها الدول الكبرى والذى سينجو ويحقق التحديث بالتصنيع هو الذى سيطهر صفوفه من عملاء الدول الكبرى من أوباش المتغربين والمتمركسين والبهائيين الذين يتبسمون فى حنان مؤكدين ان الثورة التكنولوجية ، قد ألغت الحدود ، وأزالت القوميات ، وأنهت شعارات الثورة الصناعية ، ولم يعد يهم الآن أين تصنع السيارة أو المدفع .. انه عالم سعيد سعيد .. وشعوبهم تأكل الطين وتضرب بالأحذية !

لنتأمل الصراع الوحشى الذى يدور بين الاحتكارات الصناعية الكبرى على الأسواق ، واعتصار العالم الثالث إلى مستوى الدم ولنتذكر أن اليابان لم تتمكن من النهوض بعد ضربها بالقنبلة الذرية ، إلا بفضل الصراع الأمريكى — الروسى وكذلك دول شرق آسيا نمت مستغلة هذا التناقض . ولا شك أن إعادة النظام فى شرق آسيا ووقف انتقال الحضارة إلى هناك وهو ما تتوقعه جميع التحليلات ، أو على الأقل خفض سرعة هذا الانتقال ، يتطلب وقف الصراع الروسى — الامريكى وتفرغهما للمشاغبين الجدد .

وكما قلنا فإن روسيا تستعد لحرب مصيرية مع الصين ، وهى بالطبع تخشى ان تتحد اليابان والصين فكلتاهما تعتبر روسيا الفيتو على طموحاتها فى شرق آسيا وكلتاهما لها مطالب وطنية مغتصبة من جانب الروس .. وهكذا اتفقت المصالح فإذا زال الخطر الروسى فى الشرق الأقصى وأوروبا أصبحت أمريكا أكثر قدرة على معالجة اليابانيين أو الأقزام الصفر — كما لا يزال الامريكيون يطلقون عليهم — وروسيا بالطبع ارتاحت من خطر أوروبا الموحدة ووضعتها ، مرة أخرى فى مواجهة ألمانيا ، واتفقت مع أمريكا ، وأصبح بوسعها الاستدارة للصين وتصفية حسابات عمرها أكثر من قرن .

وكنت قد كتبت أو بالأحرى نقلت من النشرات السوفيتية منذ ربع قرن فى كتابى «الماركسية والغزو الفكرى» هذه السطور ، واعيد نشرها الآن لجيل لم يكن قد ولد :
« تقول البرافدا (الجريدة الرسمية للحزب الشيوعى السوفيتى) اننا نواجه برنامجا توسعيا

صريحا ذا أهداف بعيدة ، وهذا البرنامج لم يظهر اليوم أو بالأمس « البرافدا تتكلم » ففى عام ١٩٥٤ أى قبل المؤتمر العشرين صدر فى جمهورية الصين الشعبية كتاب يتضمن خريطة للصين تبينها كما كانت فى رأى مؤلفيه قبل حرب الأفيون الأولى وفى الحدود الشمالية تسير بحذاء سلسلة جبال ستانوفواى التى تفصل أراضى الشرق الأقصى عن الاتحاد السوفيتى .. وفى الغرب ادخلت فى حدود الصين جزءا من قرغيزيا وطاجيكستان (وهى التى شهدت الثورة الثانية الإسلامية بعد معركة باكو فى اذربيجان فى منتصف فبراير ١٩٩٠ ج) وكازاخستان حتى بحيرة بالخاس . كذلك ادعت أن سخالين جزء من الأراضى الصينية والآن أعلن ماوتسى تونج فى حديثه : « منذ ما يقرب من مائة عام مضت (أى قرن الضعف الذى يتحدث عنه توينبى ج) أصبحت المنطقة الواقعة شرق بيكال من أراضى روسيا ومنذ ذلك الحين أصبحت فلاديفوستك وخاباروفستك وكامشاتكا وغيرها من المناطق من أراضى الاتحاد السوفيتى ونحن لم نطالب بعد بتصفية حساب هذا الأمر » . (ص ١٤ حديث ماو للصحفيين اليابانيين ملحق المجلة السوفيتية بالقاهرة) .

وتحذر البرافدا : « هل فكر أولئك الذين يتساءلون عن ملكية الاتحاد السوفيتى لأراض تبلغ مساحتها مليوناً ونصف مليون كيلو متر مربع .. فى كيفية رد فعل هذه المزاعم على الشعب السوفيتى الذى يعيش ويعمل على هذه الأرض منذ أجيال عديدة ويعتبرها وطنه ووطن اجداده » .

فالخلاف كما ترى على مليون ونصف مليون كيلو متر مربع (لبنان كله عشرة آلاف كيلو متر مربع أى مائة وخمسين ضعف لبنان والسودان مليونان ونصف مليون كم ٢) ولم تكن روسيا بالتى تنتظر حتى تصبح الصين قادرة على إعادة رسم الحدود .

والغريب أن هذا الذى يجرى الآن ، تنبأ به الكاتب السوفيتى « اندريه ماليك » منذ أكثر من عشر سنوات فى كتاب اشتهر فى الغرب تحت عنوان : « هل يبقى الاتحاد السوفيتى إلى سنة ١٩٨٤ ؟! » وقيل وقتها إن الكتاب قد تسرب إلى الغرب بعلم وتدبير السلطات السوفيتية . والكاتب كان يعلق على رواية جورج أورويل الشهيرة : « العالم

سنة ١٩٨٤ » وملخص الكتاب أن الحرب بين روسيا والصين هى الحرب الوحيدة المحتومة وهى إذا نشبت فلابد أن يسحب الاتحاد السوفيتى قواته من شرق أوروبا ، وفى هذه الحالة ستطرح هذه البلاد الشيوعية عن كاهلها وستتوحد ألمانيا ، وستستقل جمهوريات البلطيق وربما أوكرانيا !

كل الذى حدث ان التنفيذ تأخر تاريخيا خمس سنوات وتم قبل قيام الحرب أى فى ظروف أفضل للروس ..

جورباتشوف أعلن بصراحة فى كتابه « البيريسترويكا » أن مستقبل الحضارة يقرر على الشاطىء الآسيوى للمحيط الهادى وان الروسيا مصممة على أن تشارك فى القرار يقول : « إن الشرق ، وعلى الاخص آسيا ومنطقة المحيط الهادى ، يعتبر المكان الذى تسرع الحضارة فيه خطاها . ويتجه اقتصادنا فى تطوره نحو سيبيريا والشرق الأقصى . ولذلك فنحن مهتمون حقا بتعزيز التعاون فى آسيا والمحيط الهادى . وهى المنطقة التى يرجح كثيرا أن تركز عليها السياسة العالمية فى القرن القادم . ونحن نعارض أن تكون هذه المنطقة مجالا لأحد . ونريد للجميع فيها مساواة وتعاونا وأمنا حقيقيا » (البيريسترويكا ص ٢١٦)

جورباتشوف المنفتح يريد إعادة الصين بل وشرق آسيا والمحيط الهادى لأيام الباب المفتوح للاستعماريات البيضاء ، ودون ذلك خرط القتاد الصينى واليابانى . (لاحظ أن جورباتشوف تحدث عن استعداده للتعاون مع كل القوى فى تلك المنطقة إلا الصين قال : « لقد اعلنا اننا على استعداد للتعاون مع الولايات المتحدة بنفس الطريقة التى نتعاون بها مع اليابان ورابطة دول جنوب شرقى آسيا ، والهند وغيرها من الدول .. » (ص ٢١٨)

ونسى الصين .. من شدة تذكرها ! وربما كان أحد أهم اسباب ظهور وانتصار الجورباتشوفية هى محاولة نيكسون ـــ كسينجر التحالف مع الصين لضرب أو تطويق الاتحاد السوفيتى ، وقد هرع الصينيون يغتنمون الفرصة وانفتحوا على أمريكا بكل جوارحهم ، بل وأعادوا النظام الرأسمالى لارضاء أمريكا التى سايرتهم حتى افزعت

الروس ثم غدرت بهم وهرعت إلى روسيا عندما تقدمت هذه خالعة النقاب الشيوعى ، عارضة مفاتن البيريسترويكا ! فلما تنبهت الصين وسارعت تضرب « بتوع البيريسترويكا » ، غضبت أمريكا واوقفت معاهداتها واتفاقياتها ، وان استمر تدفق الكوكاكولا وسارت المظاهرات فى شوارع الغرب كله غضبة للطلبة الصينيين . ولكن لم يمض كثير من الوقت حتى كان البيت الأبيض ، الأسود القلب ، يهنىء جورباتشوف على الطريقة الممتازة التى عالج بها الموقف فى باكو !.. ما الفرق بين سير الدبابة الصينية على اللحم البشرى ، وفعل الدبابة الروسية نفس الشىء ؟! على الأقل الصين تتحرك فى أرضها وضد مواطنيها ، ولكن الدبابة الروسية تتحرك فى أرض ليست روسية ، وضد شعب يختلف عن ومع الروس أكثر من اختلاف الكوبى عن ومع الأمريكى . لماذا يختلف رد فعل الضمير الامريكى على هذا النحو الفاضح إن لم يكن بسبب التواطؤ المفضوح !

وهكذا تقدمت روسيا مستعينة بالوفاق مع الغرب لشن الحرب على الصين ، وبالمناسبة فإن اتجاه روسيا للغرب لمواجهة الخطر الصينى تنبأ به المؤرخ البريطانى توينبى فى عام ١٩٦٥ عندما قال : « لو كنت روسيا لشعرت بالقلق ، ليس بالنسبة للمستقبل القريب بالطبع ، ولكن بالنسبة للمستقبل البعيد فيما يتعلق بالعلاقات بالصين .. ويجب أن أشير انه فى حوالى عام ٢٠٠٠ سيكون الصينيون نصف سكان العالم تقريبا ، والصينيون شعب قادر شأنه شأن كل الشعوب ، وهو شعب مجد ككل الشعوب . وخلال قرن من الضعف الذى مرت به الصين أخذت منها أقاليم ، وأخذت روسيا من الصين أكثر مما أخذ أى بلد آخر . ومازالت تضع يدها على كثير مما أخذته ، وأكثر مما تضع البلدان الأخرى يدها عليه حتى الان . إن بريطانيا مازالت تسيطر على هونج كونج ، والبرتغال تسيطر على ماكاو . هذا صحيح ولكن تستطيع الصين أن تسترد هذه الأراضى فى لحظة لو اختارت أن تفعل ذلك . (حدث فعلاج) إنهما منطقتان صغيرتان . وأمريكا أيضا مازالت تمنع تايوان من الاتحاد مع الصين القارية . ولكن حتى تايوان لا تشكل إلا جزءا صغيرا نوعا ما من الميراث الصينى . ولكن إذا نظرت إلى خريطة الامبراطورية الصينية فى عام ١٨٥٠ مثلا ، فستجد أن جزءا كبيرا جدا من

سيبيريا الشرقية بما فى ذلك فلاديفوستك . ليس ذلك فحسب بل ومناطق كبيرة إلى الشمال من نهر آمور ، وكل منغوليا الخارجية التى تشكل نوعا من التابع لروسيا اليوم . كل ذلك كان جزءا من الامبراطورية الصينية فى ذلك الوقت ، كما سنلاحظ أن الحدود بين الصين وروسيا هى أطول حدود برية فى العالم . ولقد لاحظت عام ١٩٢٩ أثناء سفرى من بكين إلى آسيتين بالقطار ، أننا خرجنا من الصين ذات الكثافة السكانية الكبيرة ، بل إن منشوريا نفسها التى لم يكن بها الكثير من الصينيين ، كانت كثافة السكان فيها كبيرة ، إذ ما قورنت بسيبيريا التى كانت بلداً خاويا .. انك تسافر فى سيبيريا أميالا وأميالاً دون أن ترى قرية وحينما يكون لديك مستويان من المياه ، المستوى فوق السد ، والمستوى تحت السد فانك تستطيع توليد طاقة كبيرة جدا .. تفريغ كهربائى .. والآن فلو كنت أنا مكان الروس لانزعجت إنزعاجا شديدا لذلك الموقف . ولكل هذه الأسباب ، اعتقد أن الروس على الأرجح سيتجهون بقدر كبير ناحية الولايات المتحدة ، والشعوب الأوروبية ، الغربية عموما » . (نقلا عن كتاب الماركسية والغزو الفكرى ص ١١٨ الطبعة الأولى مايو ١٩٦٥) .

وقد تحققت نبوءة المؤرخ الكبير حرفيا .. وبقى أن تتم الفرقعة ! ..

والحرب مع الصين وربما اليابان تحتاج لتعبئة شاملة وتطوير فى النظام الاقتصادى الروسى وزيادة كفاءته التكنولوجية . كما تحتاج لتقصير الخطوط ، فى أوروبا ، كما تنبأ مؤلف كتاب : « هل سيعيش الاتحاد السوفيتى إلى عام ١٩٨٤ ؟! » وهاهى روسيا تنسحب من شرق أوروبا ، وبنفس القوة يجب تأمين الموقف على الجبهة وذلك إما بالقضاء على مقاومة الشعوب الإسلامية وكبح الحركة الإسلامية النامية فى وسط آسيا السوفيتية ولم يكن غزو افغانستان والتشبث بالنظام العميل فى كابول إلا فى إطار زيادة عزل هؤلاء المسلمين ، ومنع انتقال الروح الثورية إليهم . أو بالاحتمال الثالث الذى أشرنا إليه فى بداية هذا الحديث ، وهو كسب هؤلاء المسلمين .

وتحتاج روسيا فى حربها مع الصين إلى مباركة الغرب .. تحتاج أن تشن هذه الحرب بأسم الإنسان الابيض ومباركته ، تحتاج أن تتخذ شكل حرب صليبية باسم المسيحية الأوروبية .

ولقد بادر جورباتشوف يقدم مستندات أوروبيته باشهار مسيحيته فقال :

«نحن أوروبيون .. لقد كانت المسيحية توحد روسيا القديمة مع أوروبا ، وسوف نحتفل فى العام القادم (١٩٨٨) بمرور ألف عام على دخول المسيحية أرض أسلافنا . وتاريخ روسيا هو جزء عضوى من التاريخ الأوروبى العظيم» . (البيريسترويكا ص ٢٣٠) .

ولعلنا نتوقف هنا لنسأل العلمانيين فى بلادنا الذين فسق الغرب فى عقولهم ، كم مرة قلنا ان الحضارات تنقسم دينيا إلى الغرب المسيحى ؛ بشقيه الرأسمالى والشيوعى ، وهو أى هذا الغرب فى موقع واحد من خط المواجهة مع الشرق الإسلامى .. وكم سخروا من تفسيرنا هذا لأنه يتنافى مع الماركسية والعلمانية .. ما رأيكم الآن وهاهو جورباتشوف الزعيم الشيوعى آخر طبعة ، الأمين على المادية الجدلية ، لا يجد ما ينتسب به إلى أوروبا إلا المسيحية .. ما رأيكم ؟! لماذا يكون إنتساب المسلم وحده للدين تخلفاً ورجعية ؟ ! وأيضاً كيف أن من لايزال يصف نفسه بأنه ماركسى لينينى نسى كل الفوارق الايديولوجية والطبقية بين الامبريالية والاشتراكية ، وراح يتحدث عن أوروبا الواحدة من الاطلنطى إلى الأورال : إن أوروبا « من الاطلنطى إلى الأورال» تشكل كيانا ثقافيا تاريخيا يوحده التراث المشترك للنهضة والتنوير . وللتعاليم الفلسفية والاجتماعية العظيمة للقرنين التاسع عشر والعشرين» (ص ٢٣٨) .

عندما كانت روسيا تبنى إمبراطوريتها السوفيتية ، خدعوا العمال فقالوا : ليس للعمال وطن !! وقالوا حتى الوطن الواحد لا يتسع للعامل الاشتراكى والبورجوازى معا .. الآن يقول جورباتشوف : «أوروبا بيتنا المشترك» .

أصبحت أوروبا محلا مختارا وبيت الطاعة الشرعى للاشتراكى والرأسمالى معا شرط أن يكون كلاهما أوروبيا أبيض البشرة مسيحى الجذور والتاريخ ! بل ويفخر جورباتشوف بأن تعبير « بيتنا المشترك» هو من اختراعه .

جورباتشوف عندما يعلن مسيحية روسيا وتاريخها العريق فى هذه المسيحية وعندما يدشن حملته ضد الجبهة الشعبية لتحرير اذربيجان باعلان أنه ذاهب لمحاربة الإسلاميين

الأصوليين ، فهو إنما يلعب على وتر متوارث عند الأوروبيين والروس معا فقد. ذكر مؤلفا كتاب : الخطر الإسلامى على الدولة السوفيتية .

THE ISLAMIC THREAT TO THE SOVIET STATE

وهو من تأليف : ALEXANDER BENNIGSEN & MARIE BROXUP

يقول الكتاب : «اعتبرت روسيا ثغر أوروبا الشرق كما كانت أسبانيا ثغر أوروبا الغربى أى دولة المواجهة مع المسلمين ، والتى تحمى أوروبا من الخطر الإسلامى .

والتاريخ الروسى يقوم على مقولة تزعم أن روسيا انهكت نفسها فى كفاح بطولى ضد المسلمين دام عدة قرون ، ولكنه لم يذهب هباء فقد انقذ هذا الكفاح أوروبا التى استطاعت بفضل الحماية الروسية أن تمضى فى تطوير حضارتها الرائعة ، ولكن الثمن كان فادحا ، لأن روسيا لكى تقهر برابرة آسيا كان عليها أن تهبط لمستواهم وتتبنى أساليبهم ! مثل الحكم الاستبدادى ، والأساليب الهمجية وفقدان الحرية . هذه هى الصورة التى تقدم فى الأدب الروسى .. روسيا هى الفارس الذى قتل التنين الآسيوى وانقذ الأميرة أوروبا (وإن أصابه التنين ببعض العاهات ج) . ومن ثم فللفارس الروسى حق السيادة على الأوروبيين الصغار وإمتياز تحضير الآسيوين المتوحشين مقابل الدور الذى لعبه فى قهر المسلمين ! ويعلق المؤلفان : «ولكن الحقيقة مخالفة لهذا الزعم تماما ، فعندما التقى الروس بالمسلمين فى القرن التاسع ، كانوا هم المتخلفين وكان المسلمون فى قمة الرقى الحضارى» .

«ففى القرن التاسع كان خط الحضارة والتمدن يقع حيث تبدأ روسيا السلافية وحيث تنتهى بلاد الإسلام .. وكان الروس على الجانب البربرى» .

بل ولقد وقع تطور غريب هو الذى حفظته ذاكرة التاريخ والشعوب .. ذلك أن التتار المسلمين الذين حكموا الروس ثلاثة قرون ثم دار الزمان فخضعوا بدورهم للروس رأوا فى ذلك حادثاً شاذاً عبر عنه المؤرخ التتارى اياس إسحاق بتساؤل حزين «كيف حدث أننا أصبحنا عبيداً لمن كانوا عبيدنا بالأمس ؟!» (ص ٨) .

أى انقلاب المطبوع وانعكاس الموضوع كما كان مؤرخو المشرق يعبرون عن نفس

الظاهرة . ويذهب المؤلفان إلى أن «هذا التطور تولدت عنه عقدة نقص لدى الروس فى مواجهة المسلمين ترتب عليها عداء متأصل فى قلب الروسى نحو المسلمين عامة والتتار بصفة خاصة .. تلك الكراهية المتجذرة عبر القرون والتى تجعل أى حديث عن التلاحم الاخوى بين الروس والمسلمين أحلاما وهمية» . (ص ١١) ونضيف ان هذه الكراهية ولو لأسباب مختلفة متأصلة أيضا فى قلب الأوروبى الغربى ولذلك يثير جورباتشوف هذه العاطفة المشتركة عندما يعلن أوروبيته ويتحدث باسم التاريخ المسيحى المشترك .

ولكن القسم بأوروبية روسيا ومسيحيتها لا يكفى فى عصر الديموقراطية الكاملة التى تعيشها أوروبا الغربية ، على الأقل لكسب الرأى العام ، إذ لابد أن تبدو روسيا بوجهها الأوروبى بل وأن تمحو نهائيا صورة القيصر الاسيوى المتوحش المحسوب على أوروبا رغم انفها ، بقوة جحافله الآسيوية ومناعة ثلوجه ، من إيفان الرهيب إلى بريجنيف . لابد أن تكف روسيا عن استعباد الجنس الاوروبى النبيل .. ! وكان أن أطل من موسكو وجه جورباتشوف الأوروبى البسمة والذى عرفته واحبته على الفور المعلمة ، اسطى أوروبا المسز تاتشر ، جاء جورباتشوف يتقدم بأوراق اعتماده قائدا للحملة الأوروبية لتلبية استغاثة القيصر الألمانى قبل ثمانين عاما ، الذى حذر من الخطر الصينى أو العملاق النائم كما سماه .

الصين التى قالت عنها صحيفة الفيجارو قبل ربع قرن : «إن الصين التى لن يمكن اغفال شأنها فى المستقبل القريب ، والتى سيصل عدد سكانها إلى نحو مليار نسمة .. تسودها الآن نعرة قومية شديدة لم يشهد لها مثيل فى أى مكان على الاطلاق .. انها قضية الغرب كله» . (لوفيجارو ١٩٦٥/١/١٣) .

وهاهو ايفان الروسى الذى خلص هذا الغرب من الخطر الاسلامى والعثمانى وابتلع الولايات الإسلامية يتقدم ليعيد الصين مرة أخرى وربما إلى الابد إلى ما وراء التاريخ .. وهو ما تعيه الصين جيداً ولذلك تعض بالنواجد على ديكتاتوريتها ولا تتردد فى سحق المنشقين الإنهزاميين بالدبابات ، لأنها تعيش مناخ وعقلية الروس قبل امتلاكهم الترسانة النووية .. اية انفراجة ، تعنى الانهيار امام العدو المتربص . وهذا هو سر غضبتها على

جورباتشوف ، ليس حرصا على الشيوعية بل حرصا على عزلة وتخلف روسيا العدو الألد .

ولكى يصبح الاتحاد السوفيتى قطعة من أوروبا كان عليه أن يحل مشكلة تخلف علاقات الانتاج فيه عن تقدم أدوات الانتاج ، وكما قلنا مرة ان النظام الاشتراكى الشمولى أو رأسمالية الدولة التى طبقتها روسيا منذ سيطرة ستالين على الحكم ، قد انجزت أحلام بطرس الأكبر ، وحققت ما عجزت عنه البورجوازية الروسية فى ظل القيصرية ، أعنى تعبئة الموارد لتحقيق التصنيع الثقيل وهذه مهمة لم تستطع الرأسمالية الروسية تحقيقها أو قل لم تتح لها الفرصة لمحاولتها محاولة جادة . فأصبحت روسيا بفضل اشتراكية ستالين الوحشية ، من الناحية الصناعية أو الآلية فى المستوى الذى يؤهلها للالتحاق بنادى الرأسماليين الأغنياء ، لولا علاقات الانتاج الاشتراكية المتخلفة التى تشل حركة المجتمع الروسى ، وتبقيه فى البنطلون القصير وقد غطى الشعر ساقيه .. كان لابد أن تحل محل هذه العلاقات الاشتراكية المتخلفة علاقات الانتاج الأقدر على اطلاق طاقات الإنتاج وتطويرها ، وباختصار كان لابد أن يعترف الروس بأن الرأسمالية هى أعلى مراحل الاشتراكية !

وقبل أن يصعق سكرتير الحزب الشيوعى مرة أخرى من هذا التفسير نستشهد بكلمات جورباتشوف الذى قال : « فى مرحلة معينة — وهو ما أصبح واضحا على وجه الخصوص فى النصف الأخير من السبعينات — حدث شىء ما لا تفسير له لأول وهلة . لقد بدأت البلاد تفقد قوة اندفاعها . وتكرر الاخفاق الاقتصادى بدرجة أكبر . وبدأت الصعوبات تتراكم وتتدهور ، والمشاكل التى لا تجد حلا تتضاعف . وبدأت تظهر فى حياة مجتمعنا عناصر ما نسميه بالركود ، وظواهر أخرى غريبة على الإشتراكية . وتشكل نوعا من الفرامل الذى يؤثر على تنميتنا الاجتماعية والاقتصادية . وحدث كل هذا فى وقت أتاحت فيه الثورة العلمية والتكنولوجية آفاقا جديدة للتقدم الاقتصادى والاجتماعى . وإنه لمن التناقض أن كثيرا من منجزات العلماء السوفيت قد طبقت فى الغرب بأسرع مما طبقت فى بلادنا ، ومثال ذلك ، خطوط نقل الحركة الدوارة وقد تباطأنا أيضا فى حالة أخرى ، فقد كنا أول من اخترع سباكة الصلب المستمرة . فماذا

عاد علينا من هذا الاختراع ؟ إن ثمانين بالمائة من الصلب الذى تنتجه بعض البلدان الآن تجرى سباكته بأسلوبنا بينما يتم ذلك بدرجة أقل فى بلادنا . فالمسافة طويلة فى بلادنا بين الاكتشاف العلمى وتطبيقه فى الإنتاج . وهذا ما يمكن الصناعيين الأجانب المغامرين من تحقيق الأرباح من وراء أفكارنا » .

أليست هذه العبارات جديرة بسياسى مسلم فى القرن الخامس عشر عندما حالت علاقات الإنتاج والنظم الفوقية المرتبطة بها بين العرب والاستفادة من التقدم الذى حققوه فى أدوات الإنتاج والعلم النظرى .. بينما سمحت العلاقات الإنتاجية والاجتماعية والسياسية المتقدمة فى الغرب باختراع المطبعة للاستفادة من ورق العرب وما الفه وترجمه العرب ؟! والبندقية للاستفادة من بارودهم والعدسات للاستفادة من تقدم علم الضوء عند المسلمين .. والسفن ذات الأشرعة المتعددة التى تسير على هدى بوصلتهم .. بل ألم تكن معرفة ابن ماجد وخرائط الادريسى هى التى قادت البرتغاليين حول رأس الرجاء الصالح وإلى الهند بل وربما إلى أمريكا ! بل العجب العجاب أن هذه الكلمات هى عين ما كنا نردده نقلا عن الائمة الشيوعيين فى عهد ستالين عندما قالوا إن النظام الاحتكارى المتخلف فى الغرب الرأسمالى حال دون استخدام المخترعات التى اكتشفت فى الغرب بينما استفادت روسيا الاشتراكية منها وأذكر أنهم كانوا يحدثوننا عن لمبة كهرباء اخترعها الرأسماليون لاتحترق وسيارة تسير بدون بنزين ولكن المصالح الاحتكارية تمنع استخدامها ..

الله أكبر .

صدق من قال : من عاير اخاه برضع لبن كلبة لم يمت حتى يرضعها .. !

الفصــــل الثانـــى

الإمـــبراطورية أو الحريـــة

كان لابد أن يأخذ الاتحاد السوفيتى بعلاقات الإنتاج الرأسمالية ، وبالنظام الديموقراطى بالصيغة المعتمدة فى غرب أوروبا . ويلقى فى صندوق القمامة بكل التحليلات والنظريات التى بررت أو نظرت ما أسموه ديكتاتورية البروليتاريا ، التى تبين أن البروليتاريا بريئة منها براءة الاشتراكية من لصوص وعصابة عبد الناصر ، ديكتاتورية البروليتاريا فى روسيا لم تكن سوى ديكتاتورية بريجنيف وجوز بنته . وهكذا ولأول مرة واجه الروس قضية الديموقراطية بعد سبعين سنة من اغتيال البلاشفة للحكومة الديموقراطية الوحيدة فى تاريخ روسيا ، حكومة كيرنسكى القصيرة العمر (فبراير — أكتوبر ١٩١٧) .

الديموقراطية هى قضية القضايا فى روسيا وعقدة العقد ، فطوال مائة سنة والروس يتحدثون عن الديموقراطية فى غرب أوروبا وهى شغلهم الشاغل ، يمدحونها أو يلعنونها ، ولا يقدرون على نقلها ولا التفوق عليها . وقد جاءت أنباء الانفجار الديموقراطى هذه المرة بنبأ صغير نشرته الصحف يعلن أن السوفيت بمبادرة جورباتشوفية ، وافقوا على تشكيل لجنة روسية لحقوق الإنسان ، وذلك فى الذكرى الحادية عشرة لميثاق هلسنكى . وقال البيان «التاريخى» إن اللجنة ستضم ما بين ٢٥ و ٣٠ عضواً وستقتصر جهودها على تعريف المواطن السوفيتى بحقوقه . واعتبر القرار خطوة تاريخية وعلامة بارزة على جدية التغيير الذى ينتويه جورباتشوف .. والحق أنه إنجاز هائل أن تعترف دولة الديكتاتورية العظمى بوجود الإنسان ، وحقوق لهذا الإنسان ، تحتاج إلى رقابة وحماية فى مواجهة السلطة .. ولو بعد سبعين سنة من الثورة البلشفية التى كانت أكبر نكسة فى تاريخ الحريات ، ولعلنا نذكر أن الشيوعية كانت أول من أعاد أوروبا لمنطق محاكم التفتيش أو السلطة التى تنقب فى الضمير وتدين الناس بما لم يعلنوه ، وتصدر حكمها مسبقا ثم تعذب المتهم ليعترف بالجرم المناسب للعقوبة التى تقررت ضده !

أعادت الشيوعية العالم لعهد المحاسبة على الخطأ فى الاجتهاد أو بمعنى أصح خلاف الفكر ، واعتبار هذا الخلاف من فعل الشيطان أو الطبقات المالكة ، حتى ولو كان المخالف عاملا وابن عامل ! ولم تكن الفاشية ثم النازية إلا رد فعل وإمتداداً للنكسة الشيوعية فى قضية الحريات .

وكما قيل ان البلاشفة لم يهزموا القيصرية ولا أطاحوا باستبداد القيصر بل أطاحوا بأول وآخر حكومة ديموقراطية فى تاريخ روسيا . ومن ثم فعودتهم للاعتراف بحقوق الإنسان كان حدثا شد انتباه العالم ، وتصادف أننى كنت أقرأ فى ذلك الوقت دراسة فى تاريخ المثقفين الروس فى الفترة من ١٧٠٠ إلى ١٩١٧ وهى تضم كتابات ومحاكمات العديد من المثقفين الذين لم تتح لكتاباتهم شهرة أعمال جوجول وتورجنيف وبوشكين ودوستفسكى وتولوستوى بل ولا حتى شهرة البائس مكسيم جوركى .. مثل لومونسوف الذى تحمل جامعة موسكو اسمه أو راديشيف الملقب بالأب الروحى للمثقفين الروس أو برشكوفسكايا أم الثورة الروسية ، والتى هربت من طغيان هذه الثورة ، عندما حكمت .. لأن الثورة الروسية لم تأكل أبناءها فقط بل ووالديها .. ومن درس تاريخ الفكر الروسى يمكنه القول إنه ما من أمة لها هذا السجل فى الإصرار واستمرارية الكفاح من أجل حرية المواطن مثل روسيا .. وأيضا ما من طبقة فشلت جهودها فى تحقيق هذه الحرية مثل المثقفين الروس الذين مازالوا يعيشون فى أقوى دولة فى العالم وتحت أحط نظام سياسى عرفته الإنسانية .. فهذا الإنسان الروسى الذى هزم ألمانيا ويحكم نصف أوروبا وقلب آسيا وصعد إلى الفضاء مازال يعامل معاملة الأطفال القصر تحدد له عصابة فى الكرملين ما يجوز ولا يجوز فعله أو قراءته أو الحديث عنه أو حتى الإيمان به .. أو كما قالت ابنة ستالين وهى تفسر لماذا قررت أن تهاجر مرة ثانية من الوطن الذى بناه أبوها وتسترد جنسيتها الأمريكية التى حصلت عليها فى الهجرة الأولى فقالت : فى الغرب يعاملك الناس كما يحلو لهم أما هنا فقد قاطعنى الجميع فى انتظار تعليمات السلطة !

نعم ! إن الغاء الشيوعية للعقل أدى لانحطاط الفكر الشيوعى ، إلى مستويات

مضحكة ، خاصة وقد انتشر هذا الغباء الشيوعى فى العالم كله ، واتذكر الآن عندما كنا شيوعيين فى الأربعينات ، كنا نتسلى مثل أساقفة بيزنطة وفقهاء عصر المماليك بسؤال : هل يمكن أن يخطىء ستالين ؟! وكانت الإجابة الفورية المعتمدة من الحزب اللينينى — الستالينى ، هى أن ذلك مستحيل .. تنزه شيطانهم ستالين عن الخطأ ، بل وزاد بعضهم أنه فى المرة الوحيدة التى اختلف فيها ستالين مع لينين ، كان رأى ستالين هو الصواب ! أما كيف يكون ستالين هو الصواب المطلق وهذه من الصفات الميتافيزيقية للعزة الإلهية ، فتفسيره وقتها كان بسيطا للغاية ! حقا إن ستالين عبقرى ، هذه بديهية ، لا تحتاج لنقاش أو إثبات ، دلائلها لا تُجحد ، فهو البحر الذى لا ساحل له ، ومن القابه الرسمية : ملهم فرق الدبابات وراقصات الباليه ! ورغم ذلك فصوابية ستالين المطلقة لا تنبع من عبقريته المؤكدة ، بل هى أكبر من ذلك وأعرق فى أصولها .. وكيف كان ذلك ؟

زعموا أن الصواب ليس قضية عبقرية فردية ولا ثقافية .. وإنما يتأتى من تمثيل الطبقة الأذكى ، الأرقى ، الأصوب تاريخياً (وكنا نقول أيضا أنه إذا عرضت نفس المشكلة على شيوعى فى موسكو وآخر فى القاهرة لوصلا إلى نفس الحل دون اتصال ، لأنهما يعتمدان نفس المنهاج الذى لا يأتيه الباطل ، الا وهو فكر الطبقة العاملة قائدة وطليعة حركة التاريخ !) ، وبما أن ستالين هو الممثل الأكبر والشرعى بل الأوحد للطبقة العاملة التى تتمثل فيها كل هذه الصفات بل هو ذروة تمثيل هذه الطبقة ، إنه الإنسان الذى يتجسد فيه فكر ونبوغ وعبقرية هذه الطبقة التى تملك الصواب المطلق لحركة وتفسير وتغيير التاريخ فكيف يخطىء ؟! شاهت الوجوه ، أفلا يعقلون !

ولم يكن أحد يجرؤ أن يسأل : إن كان الحال وفق السؤال فكيف أخطأ لينين وهو يمثل نفس الطبقة ؟ لم تكن هناك حاجة للسؤال لأن لينين كان قد مات ومن ثم فيجوز عليه الخطأ إذ لا سلطة له ولا بوليس سرى والمجد والصواب للقيصر الحى !

ولذلك عندما وردت أنباء تقرير خروشوف الذى أثبت أن ستالين اخطأ بل وببشاعة وذلك فى أوائل عام ١٩٥٦ .. قرر الرفاق فى مصر على الفور ، وكانوا فى السجن ، أنها مؤامرة مدبرة بين أجهزة الأمن المصرية بمساعدة المخابرات الأمريكية لتحطيم معنويات

الرفاق فى معتقل أبى زعبل ولذلك صاح أحدهم فى جهاز الراديو مخاطباً المذيع : ستشنق أنت وأبوك !!

ولم يشنق أحد بل أخرجت جثة ستالين وأحرقت !

أما كيف تطمس العقول على هذا النحو فلأننا كنا نمنع من الاستماع لوجهة النظر الأخرى ، وبغير تعدد الآراء ينحط الإنسان لمرحلة الحيوانية ، لأن الحيوانات لا تعرف تعدد الآراء . والتنظيم الشيوعى لم يمنع عنا الرأى الآخر فقط ، بل برمج عقولنا على رفض حتى الاستماع لهذا الرأى إذا سعى إلينا ، وكثيراً ما أحكى للشباب حكايتى مع الرفيق التروتسكاى الذى قابلته فى غرفة بحجز قسم عابدين عندما اعتقلنا فى عام ١٩٤٧ .. وجدت شابا يجلس على حقيبة معتزلا لا يريد الحديث مع أحد ، فتحرشت به وسألته عن سبب اعتقاله فقال على حياء : أنا .. تروتسكاى ! أى من أتباع تروتسكى . وعند الشيوعى الستالينى فى هذا الوقت ، كانت هذه الكلمة تساوى أن تدخل ديراً ثم تعلن أنك من اتباع الشيطان .. أو أنك شخصيا المسيخ الدجال أو يهوذا الأسخريوطى .. أو أن تدخل فى حوزة شيعية بمدينة قم ويسألك أحدهم عن مذهبك ، فتقول بكل تواضع : أنا من اتباع « سيدنا عبد الرحمن بن ملجم » (قاتل الإمام على) أو أنا من أشياع « الإمام يزيد بن معاوية » (قاتل الحسين) ! أو ذلك المسكين الذى تقدم من دون المشهلاتية جميعا لمساعدة الباشا فؤاد سراج الدين فى الشهر العقارى فلما سأله عن اسمه أخذ يعتذر والباشا يلح وأخيرا همس .. اسمى : جمال عبد الناصر !

ولك أن تتخيل ماذا فعلت بهذا المعترف بعضمة لسانه أنه من اتباع الشيطان تروتسكى ، ولم أكن قد قرأت لتروتسكى حرفا ومن يحتاج لقراءة مزامير الشيطان ، منعته أن يشرح فكره ولو بحرف .. وبعد ذلك كنت أقول لمن أحاوره من الشباب المتعصب : لو أننى استمعت له ربما وفرت من عمرى ، الشيوعى ، خمس سنوات .. ولكن هيهات ..

ومعذرة للاستطراد ونعود لحديث الحرية والروس فأقول اننى قد وقفت حائراً أمام هذه المعضلة التاريخية .. كيف يكون الانسان الروسى عاشقاً لهذه الحرية مستعداً

للتضحية فى سبيلها ، وعاجزا فى نفس الوقت ، عن تحقيقها عبر مائتى سنة ؟ ما هو المرض الذى أصاب مسيرة الحرية فى روسيا بشلل الطفولة فجعلها تجرجر رجليها خلف جسد ضخم مشلول الحركة .. ؟!

وأظن أننى — وأعوذ بالله من قولة أنا — وصلت إلى تفسير وهو خطيئة الإنسان الروسى التى تكمن فى وطنيته ذات الطبيعة الخاصة ، فبسبب ظروف نشأة الدولة الروسية وتطورها خلال التوسع فى بلاد المسلمين تجذرت هذه الوطنية وامتزجت بالدين ، أو بالذات الكنيسة الارثوذكسية . وانحطت إلى شوفينية استعمارية ولم ترتفع أبداً إلى المستوى الإنسانى . فالمثقف الروسى منشغل متحمس معذب بحرية الإنسان الروسى وحده .. ولم أجد نصاً واحداً لشوامخ الفكر الروسى يتحدث عن حرية المستعمرات الإسلامية فى آسيا . عن حق حفدة البخارى وابن سينا والطبرى وجنكيزخان وتيمورلنك فى التحرر وتقرير المصير .. (لاجل الحلفان فهناك تصريح للكاتب السوفيتى سولزنتسين solzhenitsyn وهو لم يطالب بالحرية للإنسان المسلم بل نصح روسيا بالتخلى عن هذه المستعمرات لأنها لابد أن تنفصل فبيدى لا بيد عمرو ، فقد نقل عنه كتاب التهديد الإسلامى انه « نصح باعطاء المسلمين فى مناطق الحدود حق الانفصال قبل أن يفوت الأوان وبذلك تخفض مساحة الاتحاد السوفيتى إلى حجمه فى عهد باسيل الثالث والدإيفان المرعب » . (ص ١٥٢) ومما يذكر أن سولزنتسين هذا من الروس المعادين للصهيونية .

أراد المثقف الروسى فى زمن القياصرة ثم فى بداية عصر السوفيت مجتمعا حراً على الطراز الأوروبى — الأمريكى فى روسيا وفى نفس الوقت مستعمرات على الطراز البريطانى فى الهند والفرنسى فى الجزائر فى آسيا المسلمة السوفيتية .. وبذلك حكم على نفسه بالفشل .. لأن هذه المعادلة مستحيلة والدولة هنا منطقها أقوى سواء فى عهد إيفان الرهيب أو ستالين الأرهب .. إذ لا يمكن قيام مجتمع حر ديموقراطى فى موسكو وآخر مستعمر بلا حقوق ولا حريات فى طشقند أو دوشانبى أو باكو .. فإما أن تعم الحرية كل الاتحاد السوفيتى وعندها فمن الطبيعى جداً أن يطلب المسلمون وينالوا

الاستقلال الوطنى الذى هو نقطة البدء فى الحرية وتنتهى الإمبراطورية . أو تبقى الإمبراطورية بنظام يحكم الجميع قهراً بالحديد والنار وبسلطة القيصر أو الرفيق .. نعم الرفيق الذى نسى قولة ماركس : «ليست حرة الأمة التى تستعبد غيرها» .. سيقال لماذا لم يقع هذا التناقض فى إمبراطوريات الدول الغربية .. والجواب — تاريخيا — يكمن فى العامل الجغرافى الذى جعل مستعمرات بريطانيا وفرنسا منقطعة الاتصال البرى مع الدول الاستعمارية فأمكن ازدواج القوانين والضمير عبر البحار . ولعلك تذكر أن النفاق البريطانى كان يسمح بإعلان؛ إن العبد الذى تطأ قدمه أرض بريطانيا يصبح حراً . وفى نفس الوقت كان اسطول سيدة البحار يمنع وصول هذا العبد لبريطانيا ، ليستمر استعباده بوحشية فى مستعمراتها ! ولكن روسيا لم يكن يسعها هذا الترف من ازدواجية الموقف والضمير لسهولة الاتصالات البرية . وتأمل أن الولايات المتحدة لكى تتمكن من الاستمرار فى قهر شعب الفلبين أعطته استقلاله وذلك يرجع إلى ثورة الاتصالات التى جعلت من المستحيل إخفاء ما يجرى فى مانيلا عن الأمريكى فى نيويورك . ولذلك كان أسهل على الامبريالية الأمريكية أن تقهر شعب الفلبين للرضوخ لمطالبها ، من خلال حكم فلبينى عميل باسم الاستقلال ، فلا تتحمل وشنطن مسئوليته علانية !

وازدادت المشكلة تعقدا بقيام النظام السوفيتى الذى اعتبر الجميع الروس وغير الروس مواطنين سوفيت متساوين ولو نظريا فكيف كان من الممكن أن يستمتع السوفيتى بحرية اسقاط الحكومة فى موسكو فإذا انتقل لأذربيجان استحال عليه المناقشة فى أوجه انفاق ثروته النفطية التى ينهبها الروس ، فى التسعينات ، بشروط افظع استغلالا مما تعرض له أبناء الخليج فى الأربعينات وفى ظل الحماية ؟!

وهكذا فإن الإنسان السوفيتى كان عليه — دائما — أن يختار إما الحرية وإما الإمبراطورية .. إما أن يعترف بأن المدخل الشرعى لحقوق الإنسان الروسى هو الاعتراف بحقوق الإنسان المسلم وتوحيد كفاحهما ضد طغيان الدولة الروسية وإما أن يتنازل عن مطلب الحرية وينسى قضية الديموقراطية . وهذا ما حاول المسلمون عبثاً إقناع الروس به خلال مائة سنة ففشلوا وأصر الروس على الاحتفاظ بالإمبراطورية فخسروا

الحرية . ولكن لنبدأ أولا بمحاولات الروس حل المشكلة الاسلامية بالقضاء على المسلمين والإسلام .

المسلمون فى الاتحاد السوفيتى هم حقا المسلمون المنسيون . ولعلنا نذكر الآن فترة الستينات عندما كانت تستقل الدول الأفريقية فنكتشف لذهولنا أنها مسلمة أو غالبيتها العظمى من المسلمين الذين اخفاهم الاستعمار خلف الشمس فلم نسمع بهم ولا سمعوا هم بالعالم ، كذلك يدهش الناس عندما يعلمون أن فى الاتحاد السوفيتى من المسلمين ما يفوق تعداد العالم العربى كله باستثناء مصر ! والبعض يظن أن المسلمين السوفيت هم مثل مسلمى بنين أو جزر القمر أو لعل فاجراً يقول انهم دخلوا فى الإسلام مع النفط وبلادهم تصدر نفطا يعادل نفط إيران والكويت معا ، ونفطهم كان فى الأسواق قبل أن يظهر النفط العربى .. ومعظمنا لا يعرف أن بلاد هؤلاء المسلمين شكلت ما يقرب من عشرة قرون واحدا من أكثر مراكز الحضارة الإسلامية تألقا ، وكانت موطنا لعدد من المع الأسماء الإسلامية .. فمن يستطيع أن يستبعد من تاريخ الإسلام بخارى موطن الإمام البخارى ، وابن سينا الموسوعى المعرفة وصاحب الفضل الكبير فى نهضة الفكر الأوروبى والطب فى العالم كله . وسمرقند عاصمة تيمورلنك وطبرستان موطن صاحب التفسير الشهير أو خوارزم موطن الخوارزمى مخترع اللوغاريتمات .

ويعيش المسلمون الآن فى الاتحاد السوفيتى بصفة أساسية فى ست جمهوريات .. أذربيجان والجمهوريات الخمس الأخرى فى اسيا الوسطى والتى كانت كلها تكون وحدة واحدة عرفت باسم تركستان ، وهى تشكل من ناحية العدد خامس دولة فى تعداد المسلمين بعد أندونيسيا ، باكستان ، بانجلاديش والهند . ولكن الاستعمار الروسى حرص على تفتيتها فحولها إلى خمس جمهوريات بل وأقام داخل كل جمهورية عدة أقاليم ومناطق وقوميات أو كما قال مسئول فى أذربيجان : الاتحاد السوفيتى مثل العلبة السحرية كلما فتحتها وجدت بداخلها علبة ثم علبة داخل العلبة وكذا فنحن ١٥ جمهورية اتحادية ، تضم داخلها عشرين جمهورية ذات استقلال ذاتى داخلها ثمانية أقاليم ذات إدارة ذاتية ، وهذا التقسيم هو واحد من مسلسل تفتيت المستعمرات الروسية وتمزيق أية وحدة يمكن أن تشكل كيانا مقاوما للسيطرة الروسية .

ويقدر عدد المسلمين فى سجن الشعوب المسمى بالاتحاد السوفيتى برقم يتراوح بين الخمسين والستين مليونا . «فى عام ٢٠٠٠ سيكون التعداد الكلى للاتحاد السوفيتى ما بين ٣٠٠ و ٣١٠ ملايين ، المسلمون سيمثلون ما بين ٢٢ و ٢٥٪ أى ما بين ٦٦ و ٧٥ مليوناً . الروس سيكونون ١٥٠ مليوناً ومجموع الجنس السلافى ٢٠٠ مليون» هذا فى تقدير كتاب التهديد الإسلامى وهو قديم . أما تقدير مجلة التايم فى يناير ١٩٩٠ فجعل تعداد المسلمين ٥٥ مليونا وقالت ان تعداد الاتحاد السوفيتى فى تقدير ١٩٨٦ هو ٢٨٢ مليونا نسبة الروس هى ٥٢,٤٪ من السكان ينتظر أن تنخفض نسبتهم فى نهاية القرن إلى ٤٦,٧٪ بينما المسلمون (١٩٧٩) ١٦٪ لكن نسبتهم سترتفع إلى ٢١٪ .

«والمسلمون والروس يعتقدون أن الزمن فى صالح المسلمين بل لعل المسلمين هم المجموعة الوحيدة فى الاتحاد السوفيتى التى تتفاءل بالمستقبل» (ص ١٤٨ التهديد) .

ويحس الروس بخطورة النمو السكانى للمسلمين ، وخاصة أنهم شأن الأقليات الفقيرة المضطهدة كالعلويين فى سوريا والسود فى أمريكا يفضلون الانخراط فى القوات المسلحة فيكونون نسبة فى الجنود أكبر بكثير من نسبتهم للسكان ، وصحيح أن الأقلية السنية أو البيضاء تستمر مدة محتفظة بمناصب الضباط ، ولكن ذلك الوضع لا يدوم طويلًا ، وقد نقلت إحدى الدراسات هذه النكتة ذات المغزى قالت : «ذهب نجم كوميدى روسى إلى أحد معسكرات الجيش السوفيتى ، وظل يلقى النكت فيضحك الضباط بشدة بينما لا يبتسم الجنود ، وأخيرا قال الكوميدى للقائد .. ألسنا فى عصر الانفتاح .. لماذا لا تسمحون للجنود بالضحك .: فرد عليه الضابط .. لا عليك .. الجنود كلهم مسلمون لا يتكلمون ولا يفهمون الروسية !» .

وفى العدد الخاص الذى نشرته مجلة ارامكو يناير/ فبراير ١٩٩٠ قالت :

«ست جمهوريات من الخمس عشرة جمهورية التى تكون الاتحاد السوفيتى هى جمهوريات إسلامية فيها أكبر جمهورية بعد روسيا . المسلمون ٥٣ مليونا . أى خمس مجموع سكان الاتحاد السوفيتى وهم يشكلون أكبر كتلة بعد الروس ، ويسكنون هلالا يمتد من أوروبا إلى الصين جنوب الاتحاد السوفيتى . تركستان نصف أوروبا من بحر

قزوين فى الغرب إلى الصين فى الشرق من الجنوب افغانستان وايران ومن الشمال روسيا . خمس جمهوريات فى وسط آسيا وهم احفاد المغول الذين حكموا وسط اسيا واقاموا المدن التاريخية فى بخارى وسمرقند .

وقالت التايمس اللندنية : «إن الإسلام ينتشر بين الشباب وخاصة بين المثقفين والطلبة . وكثير من الشيوعيين القدامى يعودون للقيم الراسخة لثقافة أجدادهم» لأنه كما قال الشاعر الطاجكى «مير غليف» : «إذا كان الروس أنفسهم لا يعلمون ماذا يفعلون فلماذا نسألهم نحن عن حل لمشاكلنا» .

موسكو اغلقت ٢٦٠٠٠ مسجد إلا ٤٠٠ واغلقت جميع معاهدهم الدينية إلا اثنين . وحافظ المسلمون على دينهم بمدارس سرية لتحفيظ القرآن ورجال دين شعبيين .

«وفى إحصاء اجرى هناك تبين أن عدد الملحدين بين المسلمين لا يتجاوز العشرين بالمائة بينما تصل هذه النسبة بين الروس إلى ثمانين بالمائة» ولنا أن نفترض أن نسبة يعتد بها بين هؤلاء الذين اعلنوا الحادهم ، فعلوا ذلك خوفا من السلطة . وقال نفس الإحصاء ان ما بين ٩٨,٩٥٪ من العائلات المسلمة يباشرون الختان والزواج الاسلامى ودفن الموتى وفقاً للشرائع الاسلامية وفى مقابر المسلمين» .. وقال تحقيق التايم «ان الثائرين الطاجيك اجبروا القوات الروسية التى ارسلت لقمعهم على الجلوس حتى ادى المتظاهرون الصلاة ! وان الذين اقاموا الصلاة على الثلاثمائة شهيد فى باكو يقدر عددهم بمليون ونصف مليون وحضر اذربيجانيون من جورجيا وطالبوا بتوجيهات سياسية من القيادات الإسلامية ، فى أذربيجان (ولاحظ أن جورجيا موطن ستالين وهى أول جمهورية تطلب الاستقلال ويقع فيها قتلى ، عندما تدخل الجيش الروسى) .

كما جاء فى التحقيق أن المساجد يتم تعميرها على يد الشباب والمراهقين فى حماسة بالغة . وقال الملا قاسم بيه : الآن كل واحد يريد الذهاب إلى مكة » .

ولقد دخل الإسلام هذه الربوع قبل ليبيا والجزائر والمغرب فقد غزا المسلمون أذربيجان سنة ٦٤٢ وفى ٦٨٥ أخذوا دربند وفى ٦٥٤ دخلوا أوزبكستان « ولكن انضمام هذه المنطقة لدار الإسلام بدأ على يد قتيبة بن مسلم عندما عين حاكما لخراسان

عام ٧٠٥ ولم تسقط الدولة الأموية إلا بعد أن كان معظم آسيا الوسطى داخل العالم الاسلامى . ودارت معركة وحيدة بين المسلمين والصينيين فى عام ٧٥١ فى طالاس بالقرب من طشقند وهناك تقرر مستقبل آسيا الوسطى . من القرن التاسع سيطر الإسلام وترسخ ومن القرن العاشر أصبحت المنطقة واحدة من أهم المراكز الثقافية فى العالم . فى القرن الحادى عشر اجتاح السلاجقة آسيا الصغرى ، وانشأوا تركيا الحالية . وفى الشرق ظهر جنكيزخان فى القرن الثالث عشر واقام واحدة من أكبر الإمبراطوريات من المحيط الهادى إلى الدانوب ومن سيبيريا إلى بورما» (مجلة ارامكو — يناير/ فبراير ١٩٩٠) .

«وانتشر الإسلام هناك بلا معارضة ، وقد ظل شرق القوقاز مرتبطاً بالخلافة وايران ودار الإسلام حتى القرن التاسع عشر» (التهديد) .

«أما بخارى فقد فتحت سنة ٦٧٦ وحتى عام ١٩١٧ كانت باكو وسمرقند تنتميان لدار الإسلام واقرب لتبريز واصفهان من موسكو وبتروغراد ولكن فى ١٩٢٤ اسدل الستار الحديدى على هذا العالم الاسلامى واختفت إحدى مراكز الاشعاع الإسلامى لأكثر من نصف قرن» .

ولا مجال لمقارنة تاريخ وحضارة هذه المناطق بحضارة أو تاريخ روسيا فمدن مثل سمرقند وبخارى كانت مزدهرة وعامرة ، ولها تاريخ قبل ظهور الإسكندر (٣٣٠ قبل الميلاد) .. وإليك بعض ما كتبته مجلة ارامكو والتايم عن هذه البلاد التى طواها الدب الروسى بين أحضانه :

«الرحالة الأسبانى الذى زار سمرقند عام ١٤٠٤ قال ان القادم عليها لا يرى إلا رؤوس الأشجار والأزهار أما البيوت فمختفية داخل الحدائق» .

« تيمورلنك ولد بجوار سمرقند ١٣٣٦ وحفيده اوغلو بك حولها إلى سمرقند الذهبية ومركزا للحضارة الإسلامية . اقام مرصدا فلكيا فى سمرقند عُد من عجائب الدنيا كان يريد تصحيح نظريات بطليموس ووضع كشفا بالنجوم اعتبر دائرة معارف تضم كل معرفة عصره . وسجل حركة النجوم ومراكز النجوم الثابتة . ورصد ألف نجمة وقد

ترجمت حساباته إلى اللاتينية ودرست على نطاق واسع فى أوروبا ونشر كتابه فى اكسفورد عام ١٦٥٢» .

« ابن سينا من بخارى فى أوزبكستان المولود سنة ٩٨٠ المعروف فى الغرب باسم «افاسينا» أعظم طبيب فى عصره ، وأعظم اسم فى عالم الطب إلى عام ١٥٠٠ — وأشهر مؤلفاته هو كتاب «القانون» فى الطب . وهو دائرة معارف ضمنت منجزات الأطباء اليونان والعرب (الأدق ان يقال المسلمين ج) وقد ترجم كتابه إلى اللاتينية واستخدم كمرجع فى أوروبا واعتبر لعدة قرون أمير المعرفة فى كل ضروبها» .

وقد زار المحرر المكتبة التى درس فيها ابن سينا أو بالأحرى ما تبقى منها وكتب يقول : «كانت واحدة من المكتبات العامة فى مدينة بخارى فى وقت لم تكن فيه طباعة بل كانت الكتب تنسخ ، فى هذا الوقت (القرن الحادى عشر الميلادى) كتب ابن سينا يتحدث عن استخدام العامة المجانى لمكتبة السلطان الملكية فى بخارى قال : «وجدت هناك العديد من الغرف ممتلئة بالكتب مصفوفة بنظام فى خزائن ، صفا فوق صف ، غرفة منها كانت مخصصة لفقه اللغة وواحدة للشعر العربى وأخرى للفقه وهكذا . كانت كتب كل علم مخصصا لها غرفة .. وقد راجعت قائمة المؤلفات الاغريقية القديمة ، وبحثت عن الكتب التى أطلبها فرأيت كتباً لم يسمع باسمها إلا القليل من الناس ، بل والتى لم أرها أنا نفسى من قبل ولا منذ ذلك الحين» .

أما البيرونى فقد ولد فى خيفا سنة ٩٧٣ هو الذى بحث فى كل ضروب المعرفة الإنسانية من التاريخ للقانون والاجتماع والأدب والأخلاق والفلسفة والرياضة والعلوم . والبيرونى هو الذى وضع مبادىء علم الجيولوجيا الحديثة ووضع الأساس لعلم الفلك وألف دائرة معارف فلكية وساهم كثيرا فى حل مشاكل الهندسة . البيرونى قدم طريقة دقيقة لتحديد خطوط الطول والعرض وبحث فى سرعة الضوء والصوت . وقبل ستمائة سنة من جالليليو بحث إمكانية دوران الأرض حول محورها . وكتب فى عام ١٠٠٠ ميلادية : «يجب أن نطهر عقولنا من كل الأسباب التى تعمى الناس عن الحقيقة مثل العادات القديمة وروح التعصب وحب الشهرة ، لكى يمكننا أن نسجل أحداث التاريخ بموضوعية ودقة» .

« وفى أوزبكستان توجد منارة كاليان وطولها ٤٥ متراً أعتقد أنه لا يوجد فى الغرب ما يفوق هذه المنارة التى بنيت فى القرن الثانى عشر والتى تعتبرها اليونسكو ضمن قائمة التراث الانسانى الواجب الحفظ » .

وفى لمحة خاطفة نقدم بعض المعلومات عن الجمهوريات الإسلامية الست وسنلاحظ أسلوبين لجأ إليهما الحكم الروسى لسحق شخصية ومقاومة هذه الجمهوريات من الناحية البشرية .. الاستيطان الروسى ، وتنويع الأجناس فى كل جمهورية ، وذلك طبعا بعد تمزيق الوطن الإسلامى والأمة الإسلامية إلى أجناس وأعراق وقوميات مفتعلة !

أذربيجـان :

ويبلغ من جمالها ان رشحتها الأساطير لتكون جنة عدن المفقودة ، وقد وجد المؤرخون الحديث عن ثروتها فى وثائق آشورية عمرها ٥٠٠٠ سنة .

مساحتها (٨٦٨٣٥ كم) أى حجم النمسا تقريبا . يزرع فيها قمح وخضروات وحمضيات وشاى وأرز وأعناب وفواكه ، وهى واحدة من أشهر مناطق العالم فى إنتاج النفط . وسكانها ترجع أصولهم للأتراك السلاجقة . معظمهم شيعة .

تعداد السكان سبعة ملايين موزعون عرقيا كالآتى : أذربيجانيون ٧٨٪ أرمن ٨٪ روس ٨٪ اتهمهم جورباتشوف بالإسلامية الأصولية . وأرسل إلى هناك ١٧ ألف جندى لضرب الثورة .

عاصمتها باكو وهى خامس مدينة فى الاتحاد السوفيتى .

كازاكستـان :

مساحتها (٢٧١٥٠٠٠ كم) وتعادل مساحة الأرجنتين أو ثلث الولايات المتحدة ، ولذا فهى الجمهورية الثانية من ناحية المساحة بعد روسيا ، تمتد من بحر قزوين فى الغرب إلى الحدود مع الصين فى الشرق . كازاك كلمة تركية معناها الرجل الذى لا سيد له . ثاروا على روسيا ١٩١٦ وفرضت عليهم المزارع التعاونية ١٩١٧ فهربوا للصين .

تعداد السكان : ١٦,٦ مليون نسمة ٤١٪ روس و ٣٦٪ كازاك و ٦٪ أوكرانيون

و٢٪ تتار . العاصمة آلما آتا ، التى شهدت مظاهرات ضد الروس عام ١٩٨٦ يقودها تنظيم اسمه عدالت أى العدالة ADILET (لاحظ أن الكلمة عربية ج) وجمعيات حماية البيئة . ولعبوا دورا كبيرا فى إجبار موسكو على وقف التجارب الذرية . وقد انبثقت منظمة عدالت من تنظيم انشىء بهدف إعادة الاعتبار لضحايا ستالين . كانت أول جمهورية اجتاحتها الاضطرابات بعد إصلاحات جورباتشوف .

اوزبكستان :

وهى مركز الحضارة الإسلامية من بحر أورال فى الشمال إلى افغانستان فى الجنوب حوالى ٤٤٩٦٠٠ كم جنوبها فرغانة وظفرشان أى أكبر ١٠٪ من كاليفورنيا وأصغر ١٠٪ من اسبانيا تعدادها ــ ١٩,٩ مليون نسمة توزيعهم العنصرى كالآتى : ٦٩٪ اوزبك ١١٪ روس ٤٪ تتار ٤٪ كازاك ٤٪ طاجيك عاصمتها طشقند يسكنها (٢٠٧٣٠٠٠) .

وهى منسوبة إلى أزبك خان ولعل بعضنا يذكر جامع أزبك وحديقة الأزبكية .. وذلك كان قبل اسدال الستار الحديدى على هذه المراكز الحضارية المسلمة حتى أصبحنا نسمع اسم أوزبكستان وكأننا نسمع عن بنين وزيمبابوى ..

تنتج أوزبكستان ٦٧٪ من مجموع انتاج القطن فى الاتحاد السوفيتى ونصف انتاج الارز السوفيتى .

يقود تحركها الوطنى منظمة اسمها «الوحدة» تطالب باسترجاع وحماية اللغة والثقافة القومية وضمان الحرية الدينية ، وحماية البلد من التلوث . وانهاء الوضع الاستغلالى الاستعمارى الذى يجعل أوزبكستان مزرعة قطن للروس كما سترى .

ولتمزيق وحدة المسلمين زرع لهم الروس اقلية تركية أخرى هم المسخيتيون . وحركوا الفتن بينهم وبين الأوزبك !

تركمانستان :

(٤٨٨١٠٠ كم) لها حدود مع إيران وأفغانستان تعدادها ٣,٥ مليون نسمة ٦٨٪

منهم تركمان و ١٢٪ روس و ٩٪ أزبك و ٣٪ كازاك . لم تظهر فيها حركة ثورية بعد . عاصمتها اشخاباد تشتهر بصحراء كراكوم أو الرمل الأسود .

طاجكستان :

جبالها تسمى سقف العالم (١٤٣١٠٠ كم) أكبر قليلا من اليونان أصغر جمهورية فى آسيا الوسطى تحدها الصين من الشرق وأفغانستان من الجنوب ، تعدادها ٥,١ مليون نسمة منهم ٥٩٪ طاجاك ٢٣٪ ازبك ١٠٪ روس . يتكلم الطاجاك الفارسية اعتنقوا الإسلام قبل ١٢٠٠ سنة ينتجون قطنا وأرزا ظهرت الاضطرابات لأول مرة فى فبراير فى دوشانبى بسبب إشاعات وصول اللاجئين الأرمن . وادعى الروس أن المسلمين جاءوا بالسلاح من أفغانستان . القيادة اسمها «الإحياء» أو النهضة وقد طالب المتظاهرون فى دوشانبى باعلان الإسلام الدين الرسمى للجمهورية ، وإعادة الأبجدية العربية للغة الكتابة وقال مثقف روسى يعيش فى طاجكستان ان بعض العناصر المتطرفة فى الجهاز الحاكم تريد اعلان الجمهورية دولة إسلامية (تايم) وقال ان كل غير الطاجاك يريدون الهجرة . وقد أرسل جورباتشوف سبعة آلاف عسكرى لقمع الحركة الوطنية .

قرغيزيا :

(١٩٨٥٠٠ كم) أكبر من سوريا ولبنان معا تقع على حدود روسيا والصين تعدادها ٤,٣ مليون نسمة ٤٨٪ منهم قرغيز و ٢٦٪ روس . ثلث القرغيز هربوا إلى الصين عام ١٩١٦ بعد ثورة فاشلة ضد الاحتلال الروسى لأحسن أراضيهم — العاصمة فرونر .

وينتج المسلمون كل محصول الاتحاد السوفيتى من القطن و ٦٪ من الثلاجات . و٢١٪ من القمح . سيبيريا وحدها — وهى من بلاد المسلمين المغتصبة — تنتج خامات أكثر من الاتحاد السوفيتى ٣,٥ مرة وتباع بأسعار مدعومة .

ولتوضيح السياسة الخبيثة التى تقوم بها السلطة ، نلاحظ انتشار هجرة الروس فى جميع الجمهوريات حيث يشكلون الطابور الخامس أو قوة قمع مثل المستوطنين اليهود فى فلسطين ، وفى نفس الوقت الحرص على نقاء العنصر الروسى فى جمهوريتهم . فرغم ارتفاع مستوى المعيشة فى روسيا عن بقية الاتحاد السوفيتى ، وبالتالى حرص الآخرين

على سكنى روسيا نجد أن نسب السكان فى الجمهورية الكبرى روسيا هى : ٨٣٪ من الروس الخلص و ٤٪ تتار و ٣٪ أوكرانيون .

وبلاد المسلمين فى الاتحاد السوفيتى تدار كمستعمرة بالمفهوم التقليدى منذ الفتح الروسى إلى اليوم .. اخصب الأراضى تنتزع وتمنح للنبلاء الروس ثم للفلاحين الاشتراكيين ، شرط أن يكونوا من الروس ! اقتصاد البلاد يوجه لمصلحة الروس فيتخصصون فى الخامات ويتم التوسع الزراعى على حساب البيئة ومصالح السكان الأصليين .. والحركة الوطنية الان ترفع نفس شعارات المصريين فى العشرينات ضد الاستعمار الإنجليزى .. فقد صرح مواطن تركمانى يعمل بيولوجيا ، لصحيفة أجنبية بقوله : نحن لا نناقش الانفصال فى جمهورياتنا ، ولا توجد مشاكل عنصرية . مشكلتنا هى ان روسيا تجعلنا ننتج قطنا أكثر وأكثر فليس لدينا مكان لتربية الماشية . وقال مسئول بالحزب الشيوعى فى كازاكستان :

« إن تجارب الأسلحة الذرية كانت تجرى فى جمهوريتنا بدون استشارة الشعب ولذا فهناك تناقض بين الجمهورية والمركز . وهناك أيضا مأساة بحر أورال الذى يموت ، انتاج الصوف والفحم والمعادن والقمح وأسعارها ، يحددها المركز على حساب خسارة الجمهورية . كازاخستان يجب أن تقرر بنفسها قضاياها الثقافية والاقتصادية مع ترك مسئولية الدفاع عن الحدود وخطوط السكك الحديدية للمركز » .

وقال اخرون : «إن الجمهوريات الإسلامية تنتج الآن أكثر من نصف الانتاج الزراعى والثروة المعدنية إلا أنها الجمهوريات الأكثر فقرا فى الاتحاد السوفيتى . ان روسيا استثمرت ثروة تركستان كأنها مستعمرة . جعلوا أوزبكستان تتخصص فى القطن وكازاكستان للقمح . ولزراعة مساحات جديدة حولوا الأنهار مما أدى إلى جفاف بحر أورال الذى كان يوما ما أكبر بحيرة فى العالم ، الآن هبط مستواه ١٣,٥ متر ونقص إلى نصف مساحته السابقة وتحيط به الآن شواطىء ملحية ورملية» .

واستمع لهذا الحوار ستجده فى كتابات المصريين والهند فى مطلع القرن العشرين ضد الاستغلال البريطانى لمصر والهند لزراعة القطن لحساب لانكشير كما كنا نقول .. يقول

المسلمون السوفيت : « آسيا الوسطى تنتج ٩٠٪ من قطن الاتحاد السوفيتى معظمه ينتج فى أوزبكستان ولكن ستة فى المائة فقط من إنتاج أوزبكستان يصنع فيها والمتبقى يصدر إلى روسيا لتبيعه فى الخارج أو تصنعه وتعيد تصديره لأوزبكستان » .

كل الذى قرأه وكتبه الشيوعيون عن استغلال الانجليز لمصر والهند طبقوه بقسوة واتقان وهمجية فى مستعمراتهم الآسيوية المسلمة .

الكاتب الاوزبكى محمد صالح يقول : « نحن نبيع القطن خاما ويذهب للروس الذين يصنعونه ويبيعونه لنا قمصانا . ونحن ندفع ما يعادل ٤٢ دولارا فى القميص المصنوع فى روسيا بينما لو صنعناه فى أوزبكستان يتكلف سبعة دولارات . وكتب فلاح فى مزرعة جماعية . معظم القطن يباع للدولة بسعر الكيلو عشرين سنتا والدولة تصدره بسعر ثلاثة ونصف دولار للكيلو . والنتيجة كما كان الحال فى الامبراطورية البريطانية بل وكل الامبراطوريات الاستعمارية وهى أن أجور العمال فى وسط آسيا أقل أربعين بالمائة من متوسط الأجر السوفيتى . فالمتوسط العام ١٥٠ دولارا فى الشهر ، ولكن فى أوزبكستان ٨٥ دولارا فقط » .

« آسيا الوسطى ثالث منتج للنفط فى روسيا (أول منتج للنفط فى روسيا هو أقليم التتار المستقل ذاتيا وهو من بلاد المسلمين أيضا) وتنتج الجمهوريات المسلمة ثلث غاز الاتحاد وربع النحاس ونصف الذهب وجميع إنتاج الاتحاد السوفيتى من اليورانيوم يخرج من بلاد المسلمين » .

وقد مرت علاقات المسلمين بالروس بمراحل متعددة ، بدأت بخضوع الروس للسيادة الإسلامية «خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فكانت الغلبة للمسلمين ونبلاء الروس مجرد ولاة يحكمون تحت سيطرة المسلمين ، وكانت موسكو تسمى مشيخة الموسكوف وحكامها يدفعون الجزية للقبائل الذهبية أو الخانات» .

ثم بدأت القوة العسكرية للمسلمين فى الضعف بتأثير الحضارة وترف المدنية واسترخاء الاطمئنان لعالمية ديار الإسلام ، بينما كان الموسكوف قد بدأوا رحلة الصعود تحت قيادة أكثر الكنائس تزمتا وتعصبا وأرتباطا بقوميتها . وبدأت عملية التوسع فى بلاد المسلمين وعلى انقاض حضارتهم وتاريخهم وفوق اشلائهم وضد دينهم : «استغرق اخضاع الروس لبلاد المسلمين حربا متصلة دامت ٣٤٨ سنة بدأت فى ١٥٥٢ باحتلال قازان جوهرة المداين وتوقفت فى عام ١٩٠٠ بالوصول إلى بامير على حدود الصين ثم استؤنفت باحتلال أفغانستان حيث امتدت الحدود الفعلية لروسيا إلى ممر خيبر» (التهديد) .

ونتوقف قليلا عند ملاحظة أوردها المؤلفان والكثير من المصادر الأجنبية حول ما يصفونه بالطابع اللاصليبى لحرب إيفان المرعب الذى بدأ الحملة الروسية ضد المسلمين وذبح كل سكان قازان عندما سقطت ، فحتى لو صح أنه لم يكن يشن حربا صليبية عامة ، وهو ما لا نوافق عليه ، إلا أن تفسير غموض العلاقة بينه وبين الحكام المسلمين لا يمكن تفسيره بما تقوله هذه المصادر من أنه «كان متزوجا بابنة خان تتارى مسلم كان متسامحا مع الإسلام بينما عمل احفاده على تنصير المنطقة بالقوة وهدموا المساجد وصادروا ممتلكات المسلمين» . بل يمكن ارجاع موقف القيصر المتوحش إلى حقيقة ظهوره فى ظل التفوق الشامل للحضارة الإسلامية . فكان يمارس حتى ولو بلا شعور أخلاقيات هذه الحضارة أو تقاليدها فى التسامح . أو قل لم يكن بوسعه أن يشن حملة تنصير شاملة وقتها والنصر الصليبى كان مازال فى بدايته . على أية حال فإن أمير قازان المسلم بعد أن قاتل أربع سنوات وسقطت مدينته بالجوع والظمأ ، ذهبوا به إلى إيفان حيث جرى تعميده فى النهر المتجمد وقالوا إنه تنصر بكامل حريته ! وتنصرت الأميرة التيجان وحملت اسم ماريا تيمركفانا وتزوجها ايفان الرهيب وأصبح وريثه على عرش

القياصرة من أحفاد جنكيزخان . فى هذه المرحلة من الصراع لم يكن المسلمون قد استوعبوا حقيقة تشكل القومية الروسية حول الكنيسة الأرثوذكسية ، بل كان الصراع اشبه بصراع قبائل وأمراء فيهم المسلم والمسيحى والوثنى واليهودى وكله فى إطار الحضارة الغالبة وهى الحضارة الإسلامية أو كما يقول المؤلفان «كان خانات المسلمين ينظرون لأمير موسكو كواحد منهم ويسمونه الخان الأبيض كناية عن الغرب» . وسنجد وضعا مشابها مع الفارق فى حالة روجر ملك صقلية الذى كان أشبه بأمير مسلم حضارياً ، مسيحى الديانة !

وبسقوط قازان التى نافست موسكو أكثر من قرن فتح الطريق أمام الروس إلى بحر قزوين وسيبيريا . وفى ١٥٥٦ سقطت استراخان ومشيخة سيبيريا ١٥٨٤ . كان احتلال ضفاف الفولجا وسيبيريا ضربة قاصمة لاقتصاديات المسلمين فقد احتكر الروس تجارة الفراء التى كانت مصدر ثراء قازان وقوتها لتحل محلها موسكو ومن أرباح هذه التجارة مولت عملية تأسيس الدولة الروسية .

ومن سخرية التاريخ أو ان شئت من قوانينه أن أهم المستوردين للفراء من روسيا كانوا من الإيرانيين والأتراك العثمانيين ، وبأموالهم فتحت بلادهم !

ويذهب المؤرخون إلى أن الحرب بعد إيفان بدأت تأخذ الطابع الصليبى .. وفرض على المسلمين الذين سقطوا فى قبضة روسيا إما التنصر أو الطرد الجماعى ومصادرة الأراضى لحساب النبلاء الروس والكنيسة وأخيرا للفلاحين الروس ، وانحط المسلمون إلى مرتبة رعايا من الدرجة الثانية . وتم تنصير عدد من التتار تكونت منهم أقلية خاصة لا يحبها الروس ولا المسلمون .

ويقول كتاب التهديد : «إذا كان الروس لم ينجحوا فى استئصال المسلمين كما فعل الاسبان فقد حطموا كيانهم وهبطوا بهم إلى مجرد أقلية داخل إطار الروسيا . واستخدمت فى ذلك أبشع الوسائل فقد دمرت الطبقة الحاكمة بالإجراءات الاقتصادية أو باجبارهم على التحول للمسيحية . (حتى القيصر كان يحارب الطبقات الرجعية ج) واجبرت الجماهير على الذوبان الثقافى وقد أدى ذلك إلى عدة ثورات انتهت بالقمع

والجلاء الجماعى للتتار . وقد خلق ذلك كراهية متأصلة موروثة مازالت تعيش عبر أربعة قرون» .

«ما بين ١٧٣٨ إلى ١٧٥٥ اختفى ٤١٨ مسجدا من مجموع ٥٣٦ كانت فى منطقة قازان . وصودرت الأوقاف ونشطت الكنيسة فى تنصير المسلمين بينما كانت عقوبة الاعدام هى جزاء من يعتنق الإسلام أو يدعو له .. ويقارن المؤرخون بين عهد القيصرة آنا ١٧٣٨ ــ ١٧٥٥ واسوأ حملات ستالين فى الثلاثينات . واقاموا أكاديمية دينية مسيحية فى قازان . ويقدر المؤلفان أنه «ما بين ١٨٦٥ و ١٩٠٠ اعتنق أكثر من مائة ألف تترى المسيحية» .

« وفى ١٧٧١ احتل الروس شبه جزيرة القرم وفى ١٧٧٤ انتزعت رسميا من الدولة العثمانية وضمت إلى الإمبراطورية الروسية .

١٧٨٢ نفى اخر خان للتتار وهو شاهين جيراى وضمت أراضيه لروسيا .

١٧٨٣ بدأ ضم شمال القوقاز ولكن الروس قوبلوا بمقاومة عنيفة من المسلمين تحت قيادة مشايخ الطريقة النقشبندية حتى ان هذه المنطقة الصغيرة نسبيا استمرت فى المقاومة زهاء القرن وأخيرا فى عام ١٨٥٦ استسلم اخر قائد نقشبندى وهو الإمام شاميل» (ربما جميل ؟) .

الروس اساتذة إسرائيل !

«منذ السنوات الأولى للاحتلال الروسى للقرم ، التى كانت أجمل مناطق الإمبراطورية تضارع الريفيرا الإيطالية والفرنسية ، تدفق عليها فيضان من المستوطنين الألمان ومهاجرون من البلطيق والروس ووزعت أحسن الأراضى التى تقع على الشاطىء على حاشية كاترين ومحبيها الكثيرين . وفى القرن التاسع عشر قرر الكسندر الأول تحويل القرم إلى وطن للمنفيين اليونانيين اعلانا لاعجابه بالأدب الاغريقى ! وخلعت أسماء يونانية على مدن القرم مثل سباستبول وسمفربول . وهكذا لم يترك القيصر المثقف للتتار من حل إلا الهجرة مرة أخرى ، ويقدر أنه ما بين ١٧٨٣ و ١٩١٣ غادر أكثر من مليون تترى القرم إلى الدولة العثمانية وكانت النتيجة ان التتار تحولوا فى وطنهم إلى أقلية رازحة تحت نير الروس» .

«وهكذا لم يتحقق الاندماج بالتذويب بل بالتهجير ، ورغم ذلك ظلت بقية من التتار تنتظر الحل النهائى على يد السوفيت وجاء هذا الحل فى عام ١٩٤٣ عندما أمر ستالين بنقلهم من وطنهم بتهمة الخيانة ! ولم يبق تتار فى وطنهم السابق القرم وهكذا فإن الأرض التى لعبت دورا بارزا فى تاريخ دار الإسلام فقدها الإسلام والمسلمون إلى الابد» (التهديد) .

واتبعت نفس الأساليب فى القوقاز فشجع استيطان الروس فى أراضى الشركس ويقدر الكتاب أنه فى ستينات القرن الماضى هجر مليون شركسى أراضيهم إلى الإمبراطورية العثمانية ، الأمر الذى جعل الروس ينفردون بالأرض وتحول من بقى من المسلمين إلى أقلية لا أهمية لها فى وطنهم . أما فى سهول الكازاك فقد عمدت السياسة الروسية إلى تشجيع ظهور قومية خاصة تقودها طبقة من النبلاء مسلمة بالاسم ولكنها فخورة بأصولها المغولية وتعتز بجنكيز خان وليس قتيبة بن مسلم . وقد تم ترويسهم فهم يتعلمون الروسية لا التركية لغتهم القومية . واستعانوا بالدولة الروسية على مقاومة الاتجاهات الإسلامية التى كان يدعو لها التتار والبخاريون فى السهوب . وشجعت الدولة إحياء التقاليد الوثنية للمغول وعملوا على بعث ما أسموه اللغة القومية للقازاق والتراث الشعبى وشجعت الدراسات والأبحاث والحفريات التى تثبت انفصالهم عن الأمة الإسلامية ومن ١٨٤١ بدأت تظهر المدارس الروسية ـــ الكازاكية . ولكن شهر العسل سرعان ما ذهب مع الريح رغم تشبث السلطة الروسية وطبقة النبلاء المتعاونين من الكازاك . والسبب هو الصراع بين الفلاحين الكازاك والمستوطنين الروس ، ولما فاض الكيل بالفلاحين المسلمين هبوا فى ثورة عام ١٩١٦ سحقها الجيش الروسى وعصابات المستوطنين المسلحين وانتهت بنزوح المسلمين إلى الصين وأرسلت الكنيسة المبشرين لتنصير من بقى منهم ونسى جنكيز خان وحل محله بطرس وإيفان وكاترينا ! ولكن بقى على السوفيت أن يقدموا الحل الأخير الذى بدأ فى العشرينات من هذا القرن عندما ذبح السوفيت جميع الماشية التى فى السهوب لتدمير أسلوب حياة الرعاة المسلمين من الكازاك ، وفعلا مات نصف مليون من الجوع ما بين ١٩٢٦ و ١٩٣٩ ، وتمت محاولة أخرى فى الخمسينات عندما جرى غزو كازاكستان بموجات من المستوطنين الروس من

الفلاحين والعمال فأصبح الكازاك بدورهم أقلية فى وطنهم .

« أما أذربيجان فقد احتلها الروس فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر دون مقاومة تذكر من قبل الأهالى ذلك أن الغزو الروسى خلص الناس من حكم القاجار السيىء ووضع نهاية لفترة طويلة من الاضطرابات الدموية . واستمرت الحياة كما كانت قبل الاحتلال الروسى ، ولم تجر محاولات للاستيطان الفلاحى واحتفظت الارستوقراطية المسلمة بأراضيها ونفوذها . واقتصر الوجود الروسى على الجيش ، وبعض الموظفين الاداريين ، وحرم النشاط التبشيرى تماما . وكان الشباب التقدمى من المثقفين المسلمين يميلون سياسيا وثقافيا إلى الدولة العثمانية أما الكبار فكانوا يميلون لايران بحكم الانتماء للمذهب الشيعى . فى أذربيجان كان أكبر نجاح للادارة القيصرية حيث اتبعت أسلوب الحكم غير المباشر » .

ولعل المؤلفين قد اكتشفا خطأ هذا التحليل بعدما اثبتت ثورة أذربيجان ، ان هذا الذى كان يبدو وكأن الروس قد انتصروا على الإسلام ، وإلى الأبد .. لم يكن إلا عارضا وقتيا أما القلب المسلم فقد ظل عامرا بالإيمان والحياة .

« اما فى تركستان التى كانت اخر ما اقتطع من دار الإسلام فقد لجأ الروس إلى طريقة أخرى ، هى الاستعمار التقليدى ، فبسبب كثافة السكان العالية ، كان أسلوب المستوطنات الروسية الزراعية غير ممكن ، ولذلك كان عدد الفلاحين الروس الذين استوطنوا التركستان قليلا بينما جاء أصحاب الياقات البيض وسكنوا المدن وتحولوا إلى ارستوقراطية استعمارية بيضاء كتلك التى كانت فى الهند وأفريقيا . وكانت السياسة المتبعة شبيهة بما جرى فى جنوب أفريقيا مع الزنوج ، فالأهالى لا يعاملون معاملة المواطنين ولا يجندون فى الجيش وعزلوا عن أى تأثير خارجى ، روسيا ، كان ، أو تتريا ، أو تركيا . وكان الهدف هو إبقاء تركستان التى كانت يوما من المراكز الثقافية الإسلامية المتألقة ، ابقاؤها متخلفة على جميع المستويات » .

وقد لخصت الدراسة الأساليب التى استخدمتها روسيا القيصرية فى احكام قبضتها على مستعمراتها الإسلامية فى الآتى :

١ — « الإبادة بالطرد الجماعى وهى سياسة قاسية ولكنها فعالة وقد استخدمت مع قبائل الشركس الغربية ومسلمى ابخازيان وجزئيا مع تتار القرم الذين أجبروا على الهجرة إلى الدولة العثمانية فى ١٨٦٥ الأمر الذى فتح البلاد على مصراعيها للمستوطنين الروس والجورجيين .

٢ — « الإبادة بالقتل الجماعى مثل المذابح التى قام بها الجنرال سكوبولوف ضد التركمان فى ١٨٨١ .

٣ — « الإبادة عن طريق الذبول أو الانقراض بعزل الشعب الإسلامى عن الخارج وتركه يفنى بالتخلف . وقد استخدمت هذه السياسة ببعض النجاح مع تتار الفولجا خلال القرن السادس عشر ومع باشكير جنوب الأورال فى القرن السابع عشر وفي القرم فى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر وفى شمال غرب القوقاز فى أواخر القرن التاسع عشر وأخيرا مع كازاك السهوب فى أواخر التاسع عشر ومطلع العشرين .

٤ — « الابتلاع خلال عمليات التنصير للمذهب الأورثوذكسى ولكن بدون الترويس لغويا وثقافيا وهى سياسة نجحت جدا مع تتار الفولجا فى القرن السادس عشر ثم مرة أخرى فى القرن التاسع عشر ونفس السياسة طبقت مع الكازاك فى مطلع القرن العشرين وفشلت فشلًا مطلقا .

٥ — « التذويب من خلال اعتناق المسيحية والترويس باللغة والثقافة وقد استخدمت مع تتار الفولجا قبل عام ١٧٨٣ وأتت بنتائج متناقضة .

٦ — « سياسة عدم التدخل وأتت بنتائج طيبة فى أذربيجان فى القرن التاسع عشر » .
واضيف هنا قطعة من كتابى « الماركسية والغزو الفكرى » الصادر فى مايو ١٩٦٥ عن السياسة التى اتبعها الحكم السوفيتى فى القضاء على الإسلام والحضارة الإسلامية بالعزلة والتجهيل ومحاربة الدين قلت يومها : « هذه شهادة آثرت أن انقلها من كتاب « أسرار ما وراء الستار » لمحمد جميل بيهم لأن مؤلفه يصلح كشاهد محايد .. فهو مسلم .. وأيضا عاطفى ومعجب بالاتحاد السوفيتى زار أذربيجان وعاد يسطر ما رآه وسمعه ، بأمانة تامة لا تخلو من اعجاب قال :

«والنظام السوفيتى يسرى على الجمهورية (اذربيجان) الآن دون شريك ، وبمقتضاه شملت المساواة الطبقات والأفراد ، كما شملت الذكور والاناث . وكان من نتيجة ذلك ان تساوى الجنسان فى الارث والشهادة والتضامن والوصايا فى النفقات . هذا فضلا عن المساواة فى الأعمال والأجور والضمان الاجتماعى ، وبالتالى منع تعدد الزوجات ، وانحصرت مهمة عقود الزواج بالموظفين المدنيين دون سواهم ، أما الطلاق فهو موجود أسوة بسائر الجمهوريات : ولكنه لا يقع إلا فى حالات محدودة وبحكم من المحكمة المدنية .. وأما الذى ظل سليما من هذا النظام فهو الأسماء العربية (يقصد الإسلامية ج) التى لا تزال منتشرة بين الرجال والنساء» .

«وإنتاج اذربيجان من النفط سبعون الف طن ، أكثر من إنتاج ايران ، وبها الحديد والمنجنيز والقطن والكروم والحمضيات والفواكه .

واذربيجان بها ثلاثون ألف مخطوطة منها ١٢ ألف مخطوطة عربية ولا يوجد بها معهد لدراسة العلوم الإسلامية والشئون الدينية ، وأما تعليم الشريعة الإسلامية فى مدارس خاصة أو مدارس حكومية فلا وجود له البتة فى أذربيجان» (عندما قامت الثورة التحريرية الاذربيجانية فى ٩٠/٨٩ كان الايرانيون يحملون لوحات عليها رسومات توضيحية للصلاة يلوحون بها عبر الحدود لمسلمى أذربيجان الذين ينقلونها ج !!) .

يقول جميل بيك :

«وقد شكرنا عمدة المجمع على ما زودنا به من معلومات ، وودعناه ونحن معجبون بتلك النهضة العلمية الجبارة ، ومشفقون فى نفس الوقت على مصير الإسلام فى تلك الجمهورية المسلمة أو بكلمة أصح التى كانت مسلمة» .

« هذا وقد فهمنا من بعد ، ان فى باكو خمسة مساجد ، اقفل احدها لنقص عدد المصلين . وإنى لأخشى إذا انقرض الجيل الحاضر وانقرض معه المحافظون ان تغلق أبواب المساجد الباقية خصوصا وان التعليم الإسلامى لم يبق له مدرسة واحدة فى أذربيجان» .

ولا يقتصر الأمر على الثقافة الإسلامية بل يروى نفس السائح : «دعينا فى اليوم التالى لزيارة رئيس جمهورية أذربيجان ولما وصلنا إلى دار الرئاسة لم نجد أحدا من رجال

الشرطة والأمن والدرك ولا حرسا آخر شاكى السلاح مما كنا نشاهده فى بلادنا فى عهدى السلطنة والإمبريالية وما لا نزال نلقاه فى عهد الاستقلال . وكان مثار اعجابنا نحن الذين الفنا رؤية الحرس .. ولكننا لاحظنا خلال الحديث أنه غير ملم بشئون لبنان إذ بدر منه سؤال يشير إلى أنه لا يعرف شيئا عن موطن الجمال والاشعاع فقد سألنا الرئيس إذا كانت لغة لبنان هى نفس لغة سوريا وقد أخذنا العجب من هذا السؤال خصوصا وان الرئيس الشاب الذى يدعى ميرزا ابراهيموف أديب كبير ومؤلف رفعته شهرته فى الأدب إلى مقام رئاسة الجمهورية . وقد تلطف فأهدانا كتابا من تأليفه فى موضوع قصصى » .

ولا ارانى بحاجة إلى تعليق (ص ١١٢ الماركسية والغزو الفكرى) .

هذا ما علقت به من ٢٥ سنة أما الآن فأقول : قر عينا ياجميل بك ، أذربيجان مسلمة بل وقلعة شامخة للإسلام وهيهات أن تقهر إسلامها دبابات جورباتشوف ، بل إن مصرعه فيها بإذن الله .. أما معلومات رئيسها عن لبنان فلاشك أنها أكثر ولكن لا أظن أنها تسرك ياجميل بك ، ولا تسره !!

نعود لحديث المؤلفين :

٧ ـــ « تدجين النخبة وعدم التدخل فى حياة الجماهير وقد نجحت هذه السياسة بعض الشىء فى كابردا واوستيا وأثمرت نتائج لفترة فى كازاخستان .

٨ ـــ « سياسة المشاركة الحقيقية السياسية والاقتصادية والتى استخدمت بنجاح باهر أيام كاترين الثانية مع تتار الفولجا والكسندر الثانى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى سهوب الكازاك » .

وإذا كان العالم يعرف جريمة ستالين ضد شعب التتار فلم تكن هذه هى الجريمة الأولى ضد التتار ولا ضد التتار وحدهم ، ويرى المؤلفان أن هناك سببا خاصا فى حالة التتار ، هو العداء المتأصل بين الروسى والتترى الناجم عن عقدة النقص التى نشأ عليها الروسى بحكم خضوعه للتتار ما يقرب من ثلاثة قرون حتى انقلب المطبوع وأصبح السيد تابعا

والتابع سيدا دون أن ينسى الروسى حقده . وجريمة ستالين كما يوردها كتاب التهديد هى :

« خلال الاحتلال الألمانى لشبه جزيرة القرم ١٩٤١ — ١٩٤٣ تصرف تتار القرم مثل كل المواطنين السوفيت الذين خضعوا للسلطة الألمانية الغاشمة . البعض انضم للمقاومة السرية والبعض اكتفوا بحماية حياتهم بينما تعاونت اقلية مع السادة الألمان . ولم تكن نسبة المتعاونين من التتار إلى التعداد الكلى لشعب التتار تفوق إن لم تكن أقل فى حالة الروس والأوكرانيين المتعاونين مع الألمان . ولكن عندما استعاد الجيش السوفيتى القرم فى ١٩٤٣ خص التتار وحدهم بتهمة خيانة الوطن وحُلت جمهوريتهم بمرسوم بتاريخ ٣٠ نوفمبر ٤٥ وألحقت بجمهورية روسيا . ولكن فى ١٩ فبراير ١٩٥٤ سحبت من روسيا واهديت لجمهورية أوكرانيا .

وقد جرى اعتقال كل المواطنين من تتار القرم الذين يعيشون فى القرم أو خارجها بما فى ذلك الجنود والضباط فى الجيش السوفيتى مهما كانت مراكزهم ونُفوا تحت ظروف مرعبة إلى سيبيريا وكازاخستان وتمت هذه العملية فى عام ١٩٤٤ . ويقدر عدد الذين تم ترحيلهم بالقوة بثلاثمائة ألف ، وتم احتلال جمهوريتهم السابقة بالمستوطنين الروس والاوكرانيين » . وكما هى العادة فى روسيا فإن العقوبة تتم بأثر رجعى ، وتنال بعقابها التاريخ نفسه ، ولذلك أعيد كتابة تاريخ القرم بعد أن حذفت منه الفترة الإسلامية فالتاريخ الجديد يقفز ببساطة عبر القرون من الاغريق إلى كاترين الثانية .

أما قرون الإسلام فلم تحدث ، رحلت إلى سيبيريا وفقدت هناك لم يعثر عليها بعد رغم الجلاسنوت والبيرويسترويكا !!

وبعد وفاة ستالين الغيت كل القرارات التى كان قد اتخذها ضد القوميات باستثناء طائفتين (تتار القرم والمان الفولجا) « ان الوضع الحالى لتتار القرم لا يمكن تفسيره خلقيا ولا سياسيا ولا استراتيجيا . التفسير الوحيد ان القرم منذ ترحيل التتار قد استوطنها الروس ولذا فإن عودة التتار ستعنى إخراج هؤلاء المستوطنين » وهو ما لا يجوز فى شريعة الأقوياء أو ان شئت المستضعفين الذين سادوا وحكموا فى غفلة من المسلمين عن دينهم . ويعلق المؤلفان : « عبر التاريخ كله لم يحدث قط ان عامل المستعمرون

مستعمراتهم بهذا الفجور والمثال الوحيد الذى يمكن ضربه خارج الاتحاد السوفيتى هو سكان جزر البيكينى » (ونقول لهما ابعدتما المطلوب وصعبتما اليسير هناك مثال أقرب وأشهر وهو ما فعلته إسرائيل مع الفلسطينيين ، ولكن هكذا اعتاد المؤرخون الغربيون أن يروا القذى فى عين البيكينى ويعموا عن الشجرة فى عين الإسرائيلى . ج) .

« ويقدر الان عدد تتار القرم بأربعمائة ألف ، تعيش غالبيتهم فى أوزبكستان والقرغيز ، حيث لا يختلطون لا بالمسلمين الترك ولا الروس . وبالنسبة للسلطة الروسية فإن مشكلة التتار قد حلت وإلى الابد وهكذا فإن أمة لعبت دورا بارزا فى تاريخ شرق أوروبا على مدى خمسة قرون قد اختفت من الوجود .. » (التهديد) وبقرار سوفيتى فى دولة الاتحاد الفريد والحريات التى يتشدق بها جورباتشوف ! ولعل فى هذا عبرة لاخواننا العرب الذين لا يصدقون بإمكانية افناء الأمة المهزومة !

« فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٤ وبدون سبب ظاهر فلم تكن هناك اضطرابات ولا حوادث فى المنطقة جمعت السلطات السوفيتية عدداً من المسلمين فى اقليم MESKHETIA و AKHALTSIKHE و AKHALKALAKI ورحلتهم إلى وسط آسيا وأساسا إلى كازاخستان واوزبكستان وقدر أنه بسبب البرد والجوع فإن خمسين ألفا ماتوا أثناء الترحيل وقد قدر عدد الذين جرى ترحيلهم من ال MESKHETIANS ما بين مائة أو مائتى الف وهم من أصول تركية تعيش فى جنوب جورجيا وهذه المجموعة بالذات لم تتهم أبدا بالتعاون مع أى عدو للاتحاد السوفيتى ولم يقدم أى سبب لهذا الترحيل إذ بقى ذلك سرا حتى عام ١٩٦٨ فجميع المطبوعات الروسية لم تأت على ذكر لا للاقليم ولا لشعبه ، تم حذفهما من التاريخ فى طبعته المعدلة من تأليف «الأخ الأكبر» . على أية حال كان من السهل معرفة السبب ففى أواخر ١٩٤٤ كان الاتحاد السوفيتى ينوى شن حملة ضغط ضد تركيا وفى يونيو ١٩٤٥ قدم مولوتوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتى طلبا رسميا لسفير تركيا فى موسكو بتسليم ثلاث مقاطعات فى الأناضول بحجة أنها تنتمى لجورجيا وهى قارص واردهان وآرتفين . ولما كانت روسيا تنوى أيضا تأييد ادعاءات أرمنية فى أقاليم أناضولية متعددة ، لذا بدا أن الحرب ضد تركيا محتملة ، أو على الأقل وقوع تحركات عسكرية فى شمال شرق تركيا ، وعليه أراد ستالين تنظيف أو تطهير

الحدود من المسلمين الذين يحتمل أن يعارضوا الأهداف والتحركات الروسية . ولكن فى يونيو ١٩٥٣ ادان مولوتوف الادعاءات الأرمنية والجورجية ، وخف التوتر مع تركيا ، وزال احتمال الحرب ولكن نسى المبعدون عن وطنهم ٢٤ سنة . وفى ٣٠ مايو ١٩٦٨ أصدر مجلس السوفيت الأعلى قرارا بأن المسخيتيين قد استقروا فى منفاهم وعليه يجب أن يبقوا هناك ويندمجوا فى الاوزبكستانيين والكازاخستانيين ! (منعا لازعاجهم مرة أخرى) .

ولكن المسخيتيين رفضوا هذا الوضع وتقدموا بطلبات للسفارة التركية بطلب اللجوء إذا رفضت الحكومة السوفيتية إعادتهم إلى بلادهم . وكانوا فى ذلك يتخذون نفس موقف اليهود والمان الفولجا ولكن الحكومة الروسية ردت باعتقالهم . ولم يسمح لأحد منهم بالهجرة إلى تركيا أو غيرها وقد حرموا من جميع الحقوق فلا صحافة بالتركية ولا يسمح بتدريس اللغة التركية فى المدارس ولذا فهم محكوم عليهم بالفناء» . (ولما تحرك المواطنون الاوزبك ضد السلطة السوفيتية حركوا لهم الأتراك المسخيتيين ، وتدخلت السلطة بحجة حمايتهم ، وهى التى شردتهم !) .

« مناطق الفولجا السفلى KALMYKS وشمال شرق القوقاز الشيشين والانجوش وهى بلاد لم تحتل من قبل الألمان فلا مجال لاتهام أهلها بالتعاون مع الغزاة ورغم ذلك فقد طوقوا فى فبراير ١٩٤٤ ورحلوا» .

فى ٣ مارس ١٩٤٤ الغيت جمهورية شيشنو ــ انجوش ذات الاستقلال الذاتى صفيت وضمت أراضيها لجمهورية الروسيا المقدسة ! وهكذا محيت من الخارطة . وفى أقل تقدير فإن المسلمين الذين تم ترحيلهم كانوا حوالى ٨٠٠ ألف اختفى منهم ما بين ٢٠ و ٣٠٪ أثناء الترحيل . وقد جرى توطينهم فى أكثر المناطق وعورة من سيبيريا ، وكازاخستان والقرغيز ، وأرسل عدد غير معروف إلى معسكرات الموت .

والهدف هو الحل النهائى لمشكلة شمال القوقاز وخاصة إذا عرفنا أنه حتى الجنود والضباط العاملون فى الجيش الأحمر بل حتى أعضاء الحزب الشيوعى من مسلمى هذه المناطق قد تم ترحيلهم بالقوة . ولكن بعد وفاة ستالين تمت تبرئتهم من تهمة الخيانة وسمح لهم بالعودة إلى وطنهم بمرسوم ١٩٥٧/١/٩ وهذا يرجع لصلابتهم . « وفى الدراسات

السوفيتية أن الشيشين هم أكثر المسلمين تدينا ، وقد اعترف الخبراء السوفيت ان هذه الروح قد ازدادت يقينا وصلابة بالتهجير . فقد أصبح الإسلام هو الهوية لشعب مهدد بالفناء منتزع من أرضه وجذوره» . ويعتقد المؤلفان « ان ثبات الشيشين على دينهم يرجع الفضل فيه إلى طريقتين صوفيتين وهما النقشبندية والقادرية وهما اللتان سيطرتا على الحياة الدينية فى شمال القوقاز منذ أواخر القرن الثامن عشر وقد الهمتا وقادتا كل المقاومات الكبرى ضد الغزو الروسى ابتداء من جهاد الإمام منصور وهو شيخ نقشبندى فى عام ١٧٨٣ إلى آخر انتفاضة ضد الحكم السوفيتى فى ١٩٤١ ـــ ١٩٤٣ . وحيوية الطرق الصوفية بين الشيشين والانجوش تتأكد بظهور طريقة جديدة صوفية فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات وهى طريقة vis haji التى انشئت فى كازاكستان بواسطة أحد المهاجرين من الشيشين هو : عويس حاجى فراج ـــ يف، والطريقة الجديدة التى هى فرع من القادرية هى أكثر الطرق طهارة وشعبية فى شمال القوقاز وهى تجمع بين الأصولية المحافظة جداً فى العقيدة ، واستخدام أحدث وسائل العصر فى نشر دعوتها . ويقدر الخبراء الروس أن أكثر من نصف المسلمين المتدينين من الشيشين والانجوش أعضاء فى طرق صوفية وهذا يعنى حوالى ٢٠٠ ألف » .

« وتعترف المصادر الروسية أن محاولة ابادة الإسلام عن طريق اغلاق المساجد وحظر إستخدامها قد أدى إلى انتشار الطرق الصوفية السرية التى تمارس الصلاة وتشرح الدين سرا ، مما جعل الناس أكثر تدينا من أى وقت مضى ، وهكذا أصبحت الطرق الصوفية أكثر خطرا على السلطة السوفيتية من الإسلام التقليدى واضطر الروس للعدول عن سياستهم فسمحوا بفتح مسجدين فى جمهورية شيشين ـــ انجوش فى عام ١٩٧٨ وخمسة آخرين فى ١٩٨٠ وقد أدى نمو الوعى الإسلامى إلى هجرة الروس الاوكرانيين وأصبحت الجمهورية أكثر إسلامية وأكثر وطنية» . « وقد أشارت صحيفة التايم إلى انتشار الإسلام السرى فى الاتحاد السوفيتى عندما قالت : « فى سنة ١٩٢٨ بدأ تدمير المساجد واستمر التدمير حتى الحرب العالمية الثانية . ولا تتوافر نسخة من المصحف فى كل مسجد (فى الأرض التى تحتفظ بأحد مصاحف عثمان الأربعة ! ج) وإذا وجدت نسخة فهى تعامل كآثار ، تحفظ فى خزانة خاصة لها مفتاح يبقى فى عهدة المشرف على

المسجد ولا تفتح إلا لكبار الزوار . فى خلال ٣٥ سنة طبع القرآن ست مرات أكبرها عشرة آلاف نسخة» . « معظم القرى بلا مساجد ولا شيوخ ولذلك قام إسلام سرى وإلا استحال عليهم الزواج وإقامة الشعائر الإسلامية مثل صلاة الجنازة ، ولكن الحكومة كانت ولا تزال تطارد الإسلام السرى» .

« وفى عام ١٩٨٥ نشرت الصحف عن ضبط حركة طبع كتب إسلامية سرية وفى ١٩٨٧ اعتقل عدد كبير من علماء الطاجيك بتهمة طبع كتب دينية وحكم عليهم بالسجن مددا تتراوح ما بين سنتين وعشر سنوات سجنا . والقى القبض على امرأة عمرها ٤٥ سنة اعتقلت هى وأبوها لأنهما يبيعان كتباً إسلامية وقالت الصحف إنهما عضوان فى شبكة واسعة» .. « وقد أدت مطاردة القرآن والكتب الدينية إلى ارتفاع سعر المصحف فى السوق السوداء — على ذمة المجلة — حتى وصل سعره إلى ثلاثمائة دولار ولكن فى عام ١٩٨٠ وخلال احتلال أفغانستان نشطت حركة تهريب المصاحف فهبط سعره إلى ٧٥ دولارا سنة ١٩٨٩» « وقبل الحكم الشيوعى كان يحج حوالى ٣٠٠٠٠ — ٤٠٠٠٠ مسلم من روسيا ولكن فى عام ١٩٣٠ منع ستالين الحج وفى ١٩٤٥ سمحوا بحج عشرين شخصا . معظمهم من الموظفين العملاء .. مثل مفتى طشقند الذى خلعته الجماهير فقد حج ١٤ مرة» .

(وأحب أن أعلق هنا حول الدور الذى لعبته الطرق الصوفية فى حماية الإسلام فى روسيا فأقول اننى شخصيا نشأت على رفض الطرق الصوفية ، ولكن إزاء ما تجمع عندى من حقائق عن الدور الذى لعبته هذه الطرق فى حفظ عقيدة الجماهير عندما انهارت الدولة الإسلامية وفقدت الجماهير القيادة أو حتى السياج الذى يحفظهم أو يلبى حاجاتهم الدينية ، فالإسلام ، كما نعلم ، ليس فيه كنيسة ، والإسلام السنى بالذات ليس فيه ولا حتى مشيخة ، وهكذا أصبح المسلم السنى ضائعا أمام مؤسسات شديدة البأس والتنظيم ، سواء أكانت الدولة الكافرة الحاكمة أو المؤسسات التبشيرية . وهنا تقدمت الطرق الصوفية تحتضن هذا الفرد الوحيد وسط الأعاصير . ويمكن قول الكثير ضد الطرق الصوفية ، فهى فى كثير من الحالات لم تكن منظمات ثورية ولكن ليس فى كل الحالات ، وهى اعتمدت على خرافات الخ ولكنها لم تكن قيادة لتحرير المسلمين بل

مجرد سياج يحوطهم إلى أن تنتهى العاصفة وهذا بحث طويل طويل .. ليس هنا مكانه) .

فالعلاقة بين الإسلام وروسيا ، بدأت علاقة عداء ، مواجهة دموية ، انتهت — كما حدث على كل الجبهات وحيثما التقت حضارتنا الآفلة بالحضارة الأوروبية الصاعدة — بانتصار الروس واخضاعهم لمساحات شاسعة من قلب الوطن الإسلامى ، هى وطن شعوب كانت يوما منارة للإشعاع الإسلامى الذى أنار طريق البشرية ، ودفع عجلة التطور والمدنية للإنسانية جمعاء . وكانت علاقة القهر واضحة صريحة فى ظل القياصرة الذين كانوا يحكمون علانية باسم الكنيسة الأرثوذكسية ، وريثة بيزنطة ، ويتبنون علنا ثأرها واحقادها ضد المسلمين .. دينهم وتاريخهم ووجودهم .. ولكن البلاشفة الذين ورثوا الإمبراطورية ودور الكنيسة ونفذوا أهدافهما بوحشية أكبر وكفاءة أشد يحلو لهم أن يتحدثوا عن الاندماج والامة الواحدة التى ولدت من المقهورين والقاهرين ، وحدة الحمل والذئب فى احشاء الدب الذى التهم الجميع . ولكن كل الوقائع تؤكد أن المواجهة مستمرة بالحديد والنار .. بالفكر والدبابة .

وكنت قد كتبت مرة أنه لا يمكن الحديث عن أمة واحدة إذا ما اختلف الناس فيها على التاريخ فاعتبر البعض نصراً تاريخياً ما يسجله البعض الآخر كنكسة قومية . وقد ذكر المؤلفان أن الروس والتتار يتبادلان الكيد التاريخى من خلال الاحتفال بأبطالهما « فالتتار يقدسون ذكرى تيمور لأنه حرق موسكو (تيمورلنك أواخر القرن الرابع عشر) . ولما أشاد الروس خلال الحرب ببطلهم « ديمترى دونسكوى » الذى هزم التتار فى موقعة كوليكوفو ، رد التتار بالإشادة ببطلهم الوطنى الخان EDIGHE الذى دمر موسكو » . ودائما تتدخل الحكومة إلى جانب البطل الروسى ، ولترجيح تاريخ الأخ الأكبر ، فقد فصل ونكل بكل المثقفين التتار الذين أشادوا بخانهم !

ويقول المؤلفان « إن الروس المستوطنين أو العاملين فى وسط آسيا يعتبرون المسلمين أقل آدمية ويلقبونهم بالسود CHERNY هذا إذا كان الروسى مهذبا أما إذا كان من الروس الرعاع فاللقب الذى يطلقه على المسلمين هو : CHERNOZHOPYE وهى تعنى يا اسود المؤخرة . وبالمقابل فالروس كما يراهم المسلمون هم الغزاة المكروهون . ومن

التعبيرات الشائعة فى وسط آسيا هى «انتظروا حتى يأتى الصينيون فسنطلى حيطاننا بدمكم» . (التهديد) .

يـد الســلام المرفوضـة

وقبل أن نتعرض للتناقض الصينى ـــ الروسى نقف مطولا بعض الشىء عند محاولات المسلمين ، التفاهم ، أو التصالح مع «الأخ الأكبر» فإزاء هذا الاصرار على إبادة المسلمين وسحق كيانهم ، جرت محاولات إسلامية للتصالح من خلال الدعوة لاتحاد روسيا الحرة الديموقراطية مع دولة إسلامية مستقلة تضم كل مسلمى الاتحاد السوفيتى . ففكرة التحالف الإسلامى ـــ الروسى التى نناقشها ، هى فكرة ، مطروحة منذ أكثر من مائة سنة وكانت المبادرة دائما من جانب المسلمين الذين حاولوا الوصول إلى تسوية أو اتفاق مع الأخ الأكبر ، يحفظ لهم آدميتهم ، وكيانهم ، وثقافتهم . وفى بعض هذه المراحل كانوا لا يطلبون أكثر من بعض دينهم .. وفى كل مرة كانت خيبة الأمل تأتى من جانب الروس الذين ما ان يصلوا إلى الحكم حتى تتقمصهم المصالح العليا للدولة ورسالة الروسيا المقدسة حامية المسيحية الأوروبية ، من الإسلام الآسيوى .. ويمكن تتبع هذه المحاولات رجوعا إلى عصر القياصرة .

فكما دعا شيوخنا نابليون إلى اعتناق الإسلام وفتح العالم بسيف الله المسلول أو حتى كما فكر السلطان العثمانى فى الاستعانة بألمانيا لضرب فرنسا وبريطانيا فقد دعا GASPRALY إلى تحالف روسى ـــ إسلامى على قدم المساواة لفتح العالم ونشر فكرته لأول مرة فى كتيب سماه « الإسلام الروسى » ، صدر فى ١٨٨١ ثم كرر الفكرة عدة مرات فى سلسلة مقالات فى صحيفة كان يصدرها اسمها «ترجمان» من ١٨٨٣ ـــ ١٩١٤ ثم فى كتاب مطول سماه «الاتفاق الروسى ـــ الإسلامى» ١٨٩٥ (ونسى أن يضيف «المستحيل») .

ويمكن تلخيص دعوته فى الآتى : «من بين كل الدول الأوروبية فإن روسيا هى أقرب الدول إلى الإسلام بحكم المجاورة التى دامت ثمانية قرون ، تخللتها فترات تعسة بغير شك

إلا إنها خلقت علاقة خاصة بين الروس والمسلمين الأتراك . ولذا فإن كان على العالم الإسلامى أن يختار شريكا فهو روسيا . ومقابل الحرية الدينية والثقافية الكاملة والمساواة المطلقة مع الروس وعد « جاسبرعلي » الروس بالمساعدة الكاملة فى الحرب ضد الإنجليز والألمان والفرنسيين . وقد قدم جاسبرعلي هذا ، مشروعه إلى العتبات الملوكية لآل رومانوف الذين وضعوه فى الأرشيف ولم يكلف أحد نفسه فى البلاط الروسى بالسؤال عن هذا التترى الفضولى » .

ومن الغريب أننى وجدت فى هذا الذى نشر عن «أوراق السنهورى» دعوة مماثلة راودت السنهورى بعد أربعين سنة فقد كتب فى مذكراته يوم ٢ نوفمبر ١٩٢٣ (لاحظ أنه ذكرى وعد بلفور ولكن السنهورى لم يكن عنده خبر) قال : «الدولة الشرقية فى حاجة — على ما أظن — إلى الاستفادة من تنافس الدول الغربية ، ولو هيىء للشرق أن يتفق مع دولة غربية قوية تكون أقل الدول مطامع فى الشرق استطاع أن يهدم النفوذ الغربى وبخاصة الإمبراطورية البريطانية الممتدة من أقصى حدود الهند إلى أقصى جنوب أفريقيا . لا أعتقد أن هذه الدولة الغربية هى انجلترا . ولكنها قد تكون فرنسا ومن صالحها هدم الإمبراطورية البريطانية ومطامعها فى الشرق إذا ضمن لها سلامة إمبراطورية فى شمال أفريقيا تكون محدودة ، ولا أعتقد أن مسألة سوريا وتنمية علاقاتها الاقتصادية معها يجعل حاجزاً متينا من هذه الدول أمام تيار البولشفيك الذى يهدد آسيا بأجمعها ثم تهدم الإمبراطورية أولا وأخيرا (هذه العبارة غير مفهومة ولكنها وردت هكذا ج ص ١٢٧) . وبذلك تأمن فرنسا من منافسة انجلترا لها وتحقق أغراضها فى ألمانيا بتفكيكها وبتقوية بولونيا ودول الاتفاق الصغير لتجعلها سداً بين ألمانيا والروسيا ، ويوقف تقدم الروس فى آسيا بتقوية الدول الشرقية التى تصد هذا التيار الجارف وتكون خطراً على روسيا يضعف كثيراً من خطر انضمام روسيا إلى ألمانيا وتقوية نفوذها فى الشرق . وقد تكون الدولة الغربية المقصودة هى إيطاليا وهذه تمتاز بأنها ناشئة تريد خوض غمار السياسة العملية وأن تقوم بدور مهم فيها ، وهى مع ذلك أقل الدول القوية مطامع فى الشرق بحكم الظروف وطريقة انضمام إيطاليا إلى الدول الشرقية غير متعسرة فلإيطاليا مطامع فى البلقان وهى عدوة اليونان ولها مستعمرات أفريقية تنظر بعين الرضا إلى إنمائها

وتقويتها على أن الحكم على هذا من الآن صعب . ولكن إذا لم تجد الدول الشرقية لا من فرنسا ولا من إيطاليا معينا (وهنا لا أستبعد إمكان الاتفاق مع الدولتين معا فليس تناقض صوالحهما بذى درجة خطيرة) إذا لم يمكن الاتفاق مع إحدى الدولتين أو معهما معا فلا يبقى أمام الشرق إلا روسيا وألمانيا متحدتين وهذا أمر لا يعلم عواقبه إلا الله » . (عبد الرزاق السنهورى من خلال أوراقه الشخصية ص ١٢٧/١٢٨) .

ومن يومها والمسلمون يدورون على قبائل الدول العظمى يطلبون المجير ، وأيضا من يومها والعرب يعتبرون الروس آخر الدواء أو « ما الذى رماك على المر قال الأمر منه » !

ونعود لمحاولات المسلمين فى الإمبراطورية الروسية ، فنقول إنه مع دخول روسيا عصر الثورة الليبرالية ثورة ١٩٠٥ علق الليبراليون المسلمون آمالهم على اندادهم الليبراليين الروس ، وبالذات الحزب الديمقراطى الدستورى ، وانضم عدد منهم فعلا لهذا الحزب وحاولوا استغلال مجلس الدوما (برلمان ثورة ١٩٠٥ ج) وكان منهم التترى يوسف أقجورا أوغلو (١٨٧٦ ــ ١٩٣٣) وكان من عائلة غنية صناعية فى سمبرسك وبعد حياة أكاديمية باهرة فى جامعات اسطمبول وباريس ، لعب دورا بارزا فى الحياة السياسية للإسلام الروسى وكان أحد المؤسسين للحزب الإسلامى المعروف باسم «اتفاق المسلمين» وفى ١٩٠٥ انضم للديموقراطيين الدستوريين وقد وصل إلى اللجنة المركزية . وكان يعتقد أن حقوق المسلمين يمكن تحقيقها بالأساليب القانونية . وبالطبع كان علمانيا وانتخب هو و ٢٤ مسلما فى مجلس الدوما الأول وفى الثانى ارتفع عددهم إلى ٣٤ ولكن آماله تحطمت عندما رفض البرلمان جميع مطالب المسلمين بلا استثناء ! وسرعان ما خبا الحماس وهبط عدد النواب المسلمين فى البرلمان الثالث إلى عشرة ثم سبعة فى الدوما الرابع . وأخيرا هاجر يوسف أقجورا نفسه إلى تركيا عام ١٩٠٨ وللأسف هو الذى حمل «الدعوة الطورانية التى دعت إلى قطع علاقة الأتراك بالإسلام واقامة الجامعة الطورانية على انقاض الجامعة الإسلامية» . وهؤلاء الذين تبنوا فكرة التحالف التركى ــ الروسى قافزين فوق التناقض الدينى والحضارى ، لأنهم كانوا يهتمون بالعنصرية التركية أكثر من اهتمامهم بالشخصية الحضارية الإسلامية بعد أن فشلت محاولتهم هاجروا إلى

تركيا واخرجوها من الإسلام باسم النعرة الطورانية ! وهم : يوسف أقجورا اوغلو ــ علي حسين زاد ــ أحمد أغا اوغلو ــ عبد الرشيد إبراهيموف تلميذ جمال الدين الأفغاني وأصبحوا مواطنين أتراكاً وكانوا بارزين في جمعية الاتحاد والترقي وبعضهم أصبح من قيادات الكماليين في العشرينات . « والفضل لهم في تحطيم الركيزتين اللتين كانتا تقوم عليهما الإمبراطورية العثمانية ، وهما : العثمانية والرابطة الإسلامية (PAN-ISLAMISM) لتحل محلهما التركية أو التتريك ! وكانت أشهر جرائدهم «أرض الترك» انشئت في اسطنبول ١٩١١ بواسطة يوسف أقجورا أوغلو واحمد أغا أوغلو وعبد الرشيد ابراهيموف وكليمجان ادريس من تتار سيبيريا» .

وأضيف أن أكبر طعنة وجهت للمسلمين الأتراك في روسيا وهم الغالبية العظمى من المسلمين هي تخلي تركيا ذاتها عن الإسلام وما كانت الحكومة السوفيتية بحاجة إلى اختراع الأكاذيب عن الإسلام فقد كان يكفيها أن تنقل بذاءات وانحطاط انقرة والذئب الأغبر الذي حكم دار الخلافة في الزمن الأغبر ، وربما كان هذا هو التفسير الوحيد لانهيار المقاومة الاسلامية في الاتحاد السوفيتي بعد انقلاب أتاتورك فلم تفق إلا مع الثورة الإيرانية ومقاومة المجاهدين البواسل في حرب أفغانستان ، فقد ضربوا من بيت أبيهم وأصيبوا بالذهول .

ومن الغريب كما قلنا أن عددا من مسلمي روسيا هم الذين شنوا هذه الحملة للتخلي عن الإسلام في عاصمة الخلافة ، وظلوا يثيرون النعرة القومية التركية ضد الإسلام حتى نجحوا في قطع كل صلة بين تركيا والإسلام في عهد أتاتورك . وكنت قد تعرضت لهذه المجموعة وبالذات الأخوين آقجور في كتابي «القومية والغزو الفكري» الصادر في عام ١٩٦٦ واتهمتهما بأنهما كانا ــ على الأرجح ــ يعملان لخدمة الدولة الروسية في تركيا ومازلت أميل إلى هذا التفسير لنشاطهما الاستفزازي المريب في تركيا . ويمكن الرجوع لذلك في موسوعة الدكتور محمد محمد حسين «الاتجاهات الوطنية في الأدب» ، ولمن يقنع بالكفاف ففي كتابي المشار إليه ما يغنيه !

« أما الاشتراكيون فاتجهوا لايران التي كانت تعيش فترة اضطرابات وأشهرهم هو

أحمد أمين رسول زاد (١٨٨٤/١٩٥٤) وهو اشتراكى اذربيجانى ومؤسس الحزب الاشتراكى الديموقراطى . وفى عام ١٩٠٨ هاجر إلى طهران ولعب دوراً فى الحركة الدستورية (١٩٠٨/١٩١٠) ونشر الجريدة الثورية (ايران الجديدة) فى ١٩١٣ ورجع لروسيا ١٩١٧ وأصبح قائد الحزب الوطنى « مساواة » . وفى ١٩١٩ انتخب رئيسا لجمهورية أذربيجان المستقلة . وبعد الثورة هاجروا جميعا إلى تركيا » . « ومن المهاجرين أحمد زكى وليد طوقان . الرئيس السابق لحكومة باشكير . وأقدس نعمت قرة . ورشيد رحمتى ١٩١٨ — ١٩٢٣ » .

« وبفشل ثورة ١٩٠٥ ظهر تيار أكثر راديكالية يمثل اياد اسحاق ، وفؤاد توكتار ، وعبد الله ذولشتين . الذين شكلوا جماعة « نجمة الفجر » واعتنقوا فكر الاشتراكيين الروس الثوريين . وفشلت المحاولة مرة أخرى ، فما إن استولى المنشفيك والاشتراكيون الثوريون على الحكم فى فبراير ١٩١٧ حتى مارسوا مع المسلمين نفس سياسة القيصر أى العصبية الروسية . وانتقلت الآمال إلى البولشفيك وكانت آخر محاولة لإيجاد حل لمشكلة المسلمين الوطنية فى إطار الدولة الروسية . وقد دامت هذه المحاولة من ١٩١٨ — ١٩٢٨ وضمت نخبة من المثقفين المسلمين الذين كانوا من شتى الاتجاهات وانضموا للحزب الشيوعى ما بين ١٩١٧/ ١٩٢٠ وبعضهم عمل مع ستالين فى لجنة القوميات . وظلوا فى السلطة خلال السنوات العشر الحرجة فى بداية الحكم السوفيتى . وباستثناء الاذربيجانيين لم يدخل مسلمون الحزب الشيوعى قبل ١٩١٧ ولكن من ١٩١٧ إلى ١٩٢٠ كانوا يقبلون فى الحزب بالالاف ، وكانوا ينضمون جماعات وليس فقط كأفراد . وكانت دعوة لينين لشعوب الشرق قد حركت الآمال فى نفوس الثوريين من المسلمين ، وساعد على ذلك الشعارات التى رفعتها السلطة والحزب ، من جانب المخادعين والمخدوعين ، عن انتهاء القهر القومى وحق تقرير المصير ، وما سود من صفحات فى استنكار ولعن الاستعمار والامبريالية والتبرؤ منهما !

وقد تقدم لامتحان هذه الشعارات رجال عظام من أمثال الزعيم الخالد الذكر « الميرسيد سلطان غالييف » وكان مسلما من شعب التتار الذى قرر ستالين إبادته بعد الحرب العالمية الثانية . كان مسلما حضاريا وسياسيا ، حاول الاستفادة قدر طاقته من

سقوط القيصرية ، حيث كان نجما بارزا فى الحزب الشيوعى الروسى ، ولكنه طرح المفاهيم الوطنية والثورية الحقيقية ، الأمر الذى تعارض مع الاستراتيجية الروسية القائمة على استمرار الإمبراطورية ، فى صيغة أو تحت لافتة جديدة هى « الاتحاد السوفيتى » . فكان الصدام وكان الاعدام .

قال « سلطان » ان العالم ينقسم إلى قاهرين ومقهورين ، وإن المسلمين الذين يشكلون شعوب المستعمرات هم بالطبع فى الجانب المقهور ، من ثم فهم قوة ثورية ومن حقهم أن يدرجوا فى سلك الأشراف .. أى « البروليتاريا » وان الثورة الوطنية فى المستعمرات هى اشتراكية فى جوهرها ، وان صراع الطبقات فى المستعمرات يمكن تأجيله ، لأنه فى هذه المستعمرات المقهورة والمستغلة من قومية أخرى ، لاتوجد فروق طبقية تستحق التركيز أو الأولوية على التحرر الوطنى » ..

وقال « سلطان » : إن إسقاط البورجوازية الروسية لمصلحة البروليتاريا الروسية ، لا ينهى القضية الوطنية للمستعمرات الروسية . والاشتراكية لا تعطى للبروليتاريا الروسية الحق فى استمرار الهيمنة على المستعمرات القديمة ، إلا بقدر ما كانت المسيحية تعطى هذا الحق للقيصر . وقال سلطان رحمة الله عليه قبل سبعين سنة « إن الأرباح المتحققة من عملية القهر القومى أو الاستعمار ستغرى البروليتاريا الروسية ، بإعادة النظام الاستعمارى ، مع تغيير فى الألفاظ ، بينما يستمر الاستغلال الاستعمارى بل قد يزيد » .

وهو ما حدث بالضبط . وأثبتت الأيام والأحداث ، عبقرية شيوعينا المسلم ..

وبهذه المناسبة أذكر أننى قلت فى عام ١٩٦٤ إن « تحرير » روسيا من الرأسمالية والاقطاعية الروسية ، زاد قدرتها وتطلعها لاستغلال الشعوب ، وعندها صفق سكرتير الحزب الشيوعى المصرى بيديه كالمجنون ، وقال إن هذه المقولة ، لا تجعله ينام الليل ! وهو معذور بحكم ثقافته المحدودة والطوق الحديدى الذى وضع رأسه فيه باسم الماركسية العلمية .. بينما « سلطان » الذى ليس دكتورا كان يستقرىء تجربة التاريخ ، فإن سقوط الاقطاعية الأوروبية لحساب الرأسمالية أو البورجوازية الأوروبية ، زاد من قدرة أوروبا على استغلال الشعوب الخاضعة لها ، ولم يخفف أعباء هذه الشعوب .. وذلك

بديهى لأن الطبقة الجديدة تكون أكثر كفاءة وأكثر تطلعا للمزيد من الموارد .. ومفتاح فهم الموقف ، هو رفض خرافة وحدة الطبقة ، والتسليم بتمايز القوميات وتعارض الحضارات ..

كذلك طالب سلطان وجماعته بدعم وقيادة ثورة الشعوب الإسلامية خارج الاتحاد السوفيتى ، حتى لا تحصر الثورة فى داخل حدود الإمبراطورية التى رسمها القياصرة .

قال سلطان : «إن شعوب الشرق هى التى ستحرر الشرق ، يقودهم المسلمون مباشرة ، وبالبرنامج الذى يطرحه المسلمون ، لا أن تقوم البروليتاريا الروسية أو أية بروليتاريا أوروبية بتلك المهمة نيابة عنهم» .

وفى مؤتمر باكو (سبتمبر ١٩٢٠) قالوا إن الثورة فى الشرق أهم من الثورة فى أوروبا .

قال سلطان غالييف : «إن الشرق الذى يضم بليوناً ونصف بليون تستعبدهم البورجوازية الأوروبية الغربية قد نسيه القادة البولشفيك » !! (كتاب الثورة الاجتماعية والشرق ١٩١٩) وقال : «إن الشرق هو المورد الأساسى للرأسمالية العالمية . افصلوا عنهم الشرق ــ الهند ــ افغانستان ــ ايران والمستعمرات الآسيوية ــ والافريقية . فإن الإمبريالية الأوروبية ستموت وحدها» (نفس الكتاب) .

وكتب أيضاً يقول : « سوفيت أذربيجان هو خطوة مهمة جداً فى تطور الشيوعية فى الشرق الأدنى . تماما كالدور الذى تلعبه تركستان الحمراء كمرشد ثورى لتركستان الصينية ، والتبت وأفغانستان والهند وبخارى وخيفا khiva لذلك ستكون أذربيجان السوفيتية ، المنارة الحمراء لايران والجزيرة العربية وتركيا» .

« من اذربيجان يمكن أن نضرب الإنجليز فى ايران ونصل إلى الجزيرة العربية ، ونقود الثورة فى تركيا» (١٩٢٠) (ولعل هذه الآمال تفسر لماذا كان عمر اذربيجان المستقلة قصيرا جدا كما يفسر لماذا سلمها الإنجليز للبلاشفة يقصفون عمرها ويحيلون أحلامها فى التحرر إلى كابوس الإبادة !) .

وكتب نجم الدين أفندى سامورسكى عن وطنه داغستان :

« داغستان بلد شرقى احتفظ بعلاقاته مع جيرانه الشرقيين ، ويمكن أن تلعب دور حلقة الوصل بين الاتحاد السوفيتى والشرق ، ويمكن أن تكون أكثر من أى اقليم سوفيتى آخر ، القناة التى تمر منها الأفكار الشيوعية إلى الشرق » (كتاب داغستان طبع فى موسكو عام ١٩٢٤) .

كان الشيوعيون المسلمون يحاولون اغراء الشيوعيين الروس بإعطائهم حريتهم مقابل الثورة الشيوعية فى الشرق كله .. كانت الصفقة التى عرضوها على الروس هى : اخرجونا من سجن القومية الروسية ، وندخل لكم شعوب الشرق كلها فى المذهب الشيوعى . وفاتهم إن الشيوعية لم تكن هدفا للروس بقدر ما كانت وسيلتهم للاحتفاظ بالإمبراطورية !

فى البداية كان الروس يخوضون حربا على جميع الجبهات وكانوا بحاجة إلى دعم المسلمين ، وأيضا ابتزاز الدول الاستعمارية لعقد مساومة معها ، مساومة شروطها أن توقف روسيا دعوة هؤلاء المسلمين لتحرير شعوب الشرق ، وتدخلهم السجن الروسى ، مقابل وقف التدخل الغربى فى روسيا أو وقف ما عرف باسم حروب التدخل . ولذلك ترك الروس مسلميهم يجرون وراء الاوهام ، ويثيرون الرعب للاستعماريات الرأسمالية بما يطرحونه على شعوب مستعمراتهم من نداءات وأحلام .. فعقدت مجموعة غالييف مؤتمرها الأول فى موسكو فى « الفاتح » من مايو ١٩١٧ وحضره تسعمائة مندوب يمثلون كل المستعمرات الروسية الإسلامية ، وقد اقرت الأغلبية « وحدة الأمة الإسلامية » .

وطالب المؤتمر بدولة واحدة لجميع المسلمين الذين كانوا فى الإمبراطورية الروسية التى يفترض سقوطها ، وان تدخل هذه الدولة المسلمة الحرة فى وحدة « ديموقراطية » مع الجمهورية الروسية .

« ورغم أن الذين تبنو فكرة اتحاد فيدرالى بين الجماعات الإسلامية بدلا من دولة موحدة كانوا الأغلبية ، إلا أن المؤتمر سادته قناعة كاسحة بوحدة الأمة الإسلامية ،

فتقرر تشكيل مجلس تمثيلى لكل مسلمى الاتحاد السوفيتى ، تحت اسم « ملى شورى » Mili Shura لتنظيم النشاط السياسى للمسلمين كما قرر المؤتمر تشكيل فرق مقاتلة تشكل من المسلمين وحدهم ، تحت أشراف مجلس عسكرى إسلامى هو « حربى شورى » أو مجلس « شورى الحرب » Harbi Shura كما شكلوا نواة لحكومة إسلامية « ادارة الملة » Mili Idar .. وكان المفروض أن هذه الأدارة ستعد لاجتماع المجلس النيابى الإسلامى Mili Mejlisi والذى انعقد بعد انتصار البولشفيك ليحل على الفور » .. (التهديد) .

وفى كل التحركات الإسلامية التى سمح بها أو التى فرضت نفسها خلال فترات الانفراج عبر المسلمون عن إحساسهم بالانتماء إلى أمة الإسلام وعن رغبة فى الوحدة اللغوية واحتلت اللغة العربية بالذات موضعا بارزا فى برامجهم ، ثم اللغة التركية لغة الغالبية العظمى من المسلمين فى الاتحاد السوفيتى . ففى اجتماع المسلمين الذى عقدوه فى نجنى نوفوجورد بعد ثورة ١٩٠٥ شكل اتحاد للمسلمين بلا تمييز وسموه ITTIFAQ AL MUSLIMIN (اتفاق المسلمين)

وقد استمر التعامل الروسى مع المسلمين على أساس أنهم أمة واحدة أو قل استمر الاغضاء الروسى عن تصرف المسلمين كأمة واحدة ، فى الفترة من ١٩١٨ — ١٩٢٣ فكان هناك جيش أحمر مسلم وحزب شيوعى مسلم ، وقوميسارية المسلمين وفى ١٩١٨ اتجهت قوميسارية مسلمة فى موسكو لتشكيل حكومة مسلمة .

وقد تعلقت أفئدة كثير من المسلمين خارج الاتحاد السوفيتى بالثورة . « كانت موسكو فعلا كعبة أحرار الشرق وكانوا جميعا يعتقدون أن ثورة أكتوبر هى فجر تحرير دار الإسلام والمستعمرات من الغرب الكريه » . « ولما استعاد الروس اذربيجان فى ابريل ١٩٢٠ ظهرت فى شمال اقليم « جيلان » الايرانى ، حركة ثورية إسلامية ، حركة Jenjeli استولوا على كل جيلان وأعلنوا جمهورية جيلان السوفيتية فى يونيه ١٩٢٠ وكان رئيسها يدزا كوشك خان .

وفى ١٩١٨ بدأ سلطان غالييف ومصطفى صبحى تكوين جيش من أسرى الحرب الأتراك » .

ولكن البلاشفة الروس كانوا يعرفون ماذا يريدون . ولم تكن الشيوعية إلا الفلسفة القادرة على حماية الإمبراطورية وتدمير كيان وشخصية ودين المسلمين وإبقائهم فى سجن الشعوب الجديد الذى أصبح اسمه الاتحاد السوفيتى . لم تكن الكنيسة قادرة — ولقد حاولت قدر طاقتها — قمع الإسلام ، وإبادته . ولكن حكومة « تقدمية » تدعى الحياد بين الأديان ، هى الأقدر على تحقيق هدف الكنيسة على المدى البعيد .

تمسك البلاشفة بوصاية الإنسان الأبيض ، وردوا على ادعاء المسلمين بقدرتهم على قيادة ثورة الشرق ردوا عليهم ، فى مؤتمر باكو سبتمبر ١٩٢٠ : « يجب ألا ننسى أبدا أن شعوب الشرق لن تتحرر بدون مساعدة برولتياريا الغرب » « إن تحرير الشرق يمكن أن يتحقق فقط من خلال انتصار البرولتياريا الغربية » .

نفس الأكذوبة التى سيرددها الحزب الشيوعى الفرنسى بعد ثلاثين سنة ، وسيرفضها الجزائريون والتى ستسقط بسقوط القوة العسكرية للاستعمار الفرنسى ، وأثبت الجزائريون أن تحرير البروليتاريا الفرنسية يمكن أن يتأخر ألف سنة عن تحرير المجاهدين لشعب الجزائر .

ولكن فى حالة المسلمين الروس انتصرت الإمبريالية ، وعاد الشيوعيون الروس يرددون مقولة الاستعمار عن محاربة الرجعية ، قال الروس : « التحرر من الحكام الأجانب ليس كافيا لتحقيق الحرية للجماهير الشرقية بل لابد من أن يحرروا أنفسهم من مستغليهم الوطنيين » (ربما ! ولكن نقطة البدء هى التحرر من الأجنبى وهو ما لم يحدث ج) .

« وبعد مؤتمر باكو ورغم معارضة الشيوعيين المسلمين أوكلت مهمة الاتصال بالحركة الثورية فى تركيا وايران للشيوعيين الروس » . « وهكذا منع البلاشفة الروس رفاقهم المسلمين الشيوعيين من تصدير الثورة للعالم الإسلامى » « وبعد مؤتمر باكو أصيبت الحركة الشيوعية بنكسة فى كل العالم الإسلامى » .

« ذبح الشيوعيون فى جمهورية جيلان التى اقتحمها الجيش الإيرانى فى ١٩٣١ وسمع الروس زملاءهم المسلمين يقولون ان الشيوعية الروسية ستكون مثل القيصرية اداة

روسيا العظمى » . (التهديد) .

تولى الأمر ستالين ممثل روسيا المقدسة رغم أنه من المستعمرات (ستالين ليس روسيا بل من جورجيا وفيها الان حركة استقلالية قوية) ولكن لينين هو الذى قال ان المتروسين يكونون عادة أشد تعصبا من الروسى الأصيل ، وكان يعنى ستالين بالذات وكانت نقطة البدء هى إنكار الأمة المسلمة . «وقد زعم ستالين انه بما أن الدين قضية شخصية فلا يمكن أن تكون هناك أمة إسلامية» !

وستالين كذاب مخادع ، فلم يقل أحد ان اعتناق الإسلام وحده هو حجتهم فى وجود أمة ، وإنما كان مطلبهم يستند إلى العديد من مكونات الأمة .. التاريخ المشترك والأمانى المشتركة واللغة حتى وحدة الجنس .. كل تعريفات الامة كانت متوافرة فيهم وأهم من ذلك كله ، ارادة العيش المشترك ، قبولهم أن يتوحدوا فى كيان واحد ، وتوحدهم فعلا لأكثر من ألف سنة قبل احتلال ستالين وأسلافه القياصرة لبلادهم وخمس سنوات بعد ثورة ١٩١٧ . ولكن هيهات أن يقبل المستعمر وحدة المستعمرات .

وقد قاوم المسلمون ستالين وحاولوا منع تمزيق «أمة الإسلام» وطالبوا بضم جل أراضى المسلمين فى جمهورية واحدة هى «جمهورية الطوران» وذلك بعد ١٩٢٣ وسكان هذه الجمهورية ـــ الحلم ، يشكل المسلمون ٧٥٪ من سكانها والجنس التركى ٨٠٪ . وكان ذلك مرفوضا بالطبع من جانب البلشفيك الروس ولذلك تابعوا خطتهم فى تفتيت أمة الإسلام .

واختلف الزعماء المسلمون مع ستالين ولينين حول مطلب استقلال الحزب الشيوعى الإسلامى وتوحيد جمهورية ـــ تاتار ـــ باشكير وهاجمهم ستالين سنة ١٩٢١ فى مؤتمر موسكو ثم حل الحزب الشيوعى فى تركستان فى ديسمبر ١٩٢٢ ـــ واعتقل سلطان غالييف فى مطلع ١٩٢٣ .

وقد ركزت السلطات الشيوعية على محاربة العربية وكان دعاة توحيد داغستان يطالبون باستخدام العربية التى يتكلمها ويكتبها كل المتعلمين هناك أو كما يقول كتاب التهديد : «داغستان حتى عام ١٩١٧ كانت البلد الوحيد فى العالم الإسلامى الذى يتحدث أهله فيما بينهم بلغة القرآن الفصحى ، وكانت البلاد الإسلامية تستورد منها

المدرسين ليعلموا العربية فى تلك البلاد وكان فيها ١٢ لهجة محلية جدا لا يتجاوز استخدامها حدود القبيلة أو القرية ، ولذا كانت لغة التعامل والاتصال هى اللغة العربية» ولكن الشيوعية حرمت العربية لأنها «لغة رجعية كهنوتية ، تشكل عقبة فى طريق التقدم والعصرنة» (والذى قال ذلك هو ستالين ! وهو نفسه الذى سيضع مؤلفا بعد ذلك يسخر فيه من الذين يتحدثون عن لغة رجعية وأخرى شعبية ويدافع ستالين فى مؤلفه هذا عن اللغة الروسية العظيمة !) .

وفرضت لغة واحدة هى الاذربيجانية التركية ثم فى ١٩٣٣ اعتمدت فى الجمهورية الداغستانية إحدى عشرة لغة رسمية !

نعـم !

إحدى عشرة لغة هى الروسية وعشر لغات ما أنزل الله بها من سلطان وليس منها العربية التى كانت لغة الثقافة والتخاطب واللغة الأم لأكثر من اثنى عشر قرنا . وكانت النتيجة بالطبع هى سيادة الروسية .

وهذه هى لعبة الاستعماريين والمبشرين فى كل مكان وصلوا إليه فى العالم الإسلامى ، وكانت لغته هى العربية ، فهم يبدأون الكيد للعربية ، بدعوى إنصاف الأقليات وحماية اللهجات أو اللغات أو اللسان الشعبى لهذه الأقليات .. البربرية .. النوبية .. الكردية .. الخ ثم يقسمون كل لغة من هذه إلى عدة لهجات .. حتى يقضى على اللغة الأم وتنبت الحزازات والحساسيات ، ولأن هذه اللغات المحلية لاتستطيع أن تكون لغة ثقافة أو حضارة ولا اللغة المشتركة على نطاق الوطن فتكون النتيجة هى سيادة لغة المستعمر . وكما قالت التايم : «فى سنة ١٩٣٩ فرض ستالين على الشعوب الإسلامية الأبجدية الروسية لقطعهم عن تراثهم الثقافى الغنى ، ولتوسيع الاختلافات الضيقة التى كانت بين المجموعات التركية الأربع الرئيسية . ولكن تزدهر الان (يناير ١٩٩٠) حركة العودة لتعلم اللغة العربية فى طشقند على يد المدارس الخاصة وقال استاذ لغة عربية ان العودة لتعلم الحروف العربية ستمكننا من قراءة كتب التراث» .

وأراد المسلمون البلاشفة ونجحوا فى إقامة جمهورية تركستان الموحدة حول اللغة

التركستانية التى سادتها فى القرن الخامس عشر ولكن هذه الوحدة دامت إلى أن اشتد ساعد موسكو فمزقها ستالين ست جمهوريات وثمانى لغات ! وأعدم جميع القادة البولشفيك من المسلمين . منهم على سبيل المثال المحدود جداً :

الكاتب منير قارى ، أول وزير معارف بعد الثورة فى جمهورية الاوزبك .

الكاتب عبد الرؤوف فترات قائد حزب شباب بخارى قبل ١٩١٧ والذى أصبح وزير خارجية جمهورية بخارى وأستاذاً فى جامعة طشقند .

فضل أمل خوجة رئيس المجلس الشعبى لجمهورية الاوزبكستان ، وقد اعدموا جميعا فى الثلاثينات كخونة بورجوازيين .. الخ .

وركزت الحملات ضد الإسلام فقد وصف بأنه دين دخيل جاء به العرب أو الايرانيوّن أو العثمانيون وان رجال الدين الإسلامى كانوا دائما عملاء للقيصر . مع العلم أن الدين الإسلامى هو أعرق الأديان فى الاتحاد السوفيتى فهم يحتفلون هذه الأيام بمرور ألف سنة على دخول المسيحية روسيا بينما عمر الإسلام هناك لا يقل عن ألف وثلاثمائة سنة !

ومن بين جميع الأديان وصف الإسلام بأنه الأكثر رجعية والأقل اشتراكية هو يقدس سلطة العواجيز ويذل المرأة ويثير التعصب وعدم التسامح ويثير المؤمنين ضد الكفار ولذلك فهو عقبة فى طريق الصداقة بين الشعوب المختلفة فى الاتحاد السوفيتى ، ووصفت العادات الإسلامية مثل الطهارة والصيام فى رمضان بأنها بدائية متوحشة غير صحية ! وذكرت التايم (يناير ١٩٩٠) : «فى سنة ١٩٣٢ وضع ستالين خطة خمسية للقضاء على الإيمان بالدين وأغلق إلا حفنة ضئيلة من الخمسة والعشرين ألف مسجد التى كانت عامرة قبل سنة ١٩١٧ وأرسل الالاف من المشايخ إلى الاعدام أو المعتقلات . والذين نجوا وسمح لهم بالعمل فقدوا ثقة الجماهير ولذلك نشأ سلك دينى غير رسمى إلى جانب التشكيلات الحكومية التى فقدت ثقة الناس ، ونشط الانخراط فى الطرق الصوفية . وفى نفس الوقت انتشرت جماعات وهابية فى أوزبكستان وطاجكستان .

ومازال جورباتشوف يعلك هراء ستالين «فمنذ أربع سنوات وصف جورباتشوف الإسلام بأنه عدو للتقدم والاشتراكية» (التايم) .

وبقية القصة معروفة ، مزقهم ستالين شر ممزق ، وقتل سلطان غالييف وصحبه ، وفتك بالمسلمين ، وأعادهم إلى أحضان الدب الروسى الذى أصبح اشتراكياً ! وذهب «غالييف» ضحية الأوهام التى أثارتها «الثورة الاشتراكية الأولى» وشهد الله أنه لم يكن بالأبله ولا كان محرفا عميلا كفلاسفة اليوم .. بل كان يحاول انقاذ المسلمين وسط الفوضى التى سادت العالم خلال الحرب العالمية الأولى ولسنوات بعدها ، والاضطراب المهول الذى عم روسيا ومستعمراتها إلى أن تمكن ستالين والجلادون الروس فأعادوا أمجاد القياصرة . وأعيدت كتابة التاريخ فى الكى . جى . بى فاتهم سلطان بخلق شبكة سرية فى موسكو وقازان لها فروع تصل حتى آلما آلتا ، والكلشيه المحفوظ الذى أعدم به كل زعماء الثورة .. محاولة السيطرة والتعاون مع الخارج .. الخ (ص ٨٥) ولن يطول الزمن حتى تقام التماثيل فى القلوب ، وفى ميادين تركستان الموحدة المستقلة ، للأمير سيد سلطان غالييف .

ولعل القارىء قد لاحظ أن جميع أسماء التشكيلات التى اقترحها المسلمون فى الاتحاد السوفيتى وردت بألفاظ «عربية» مما يشير إلى عمق الارتباط بين تحرر المسلمين فى روسيا وتدعيم علاقتهم بالثقافة والأمة العربية ، الأمر الذى يعيه الروس جيداً ويحاربه الشيوعيون منذ ستين سنة .. فقد أجبروا حتى القوميات التى كانت تكتب وتتكلم العربية على كتابة العربية بحروف روسية ، وفرضت اللغة الروسية ، لغة أولى ! ويأتى جورباتشوف فى بيريسترويكته فيفخر بفرض اللغة الروسية لغة الأمة الكبرى بالطبع يقول : «ولكننا فى نفس الوقت ، فى بلدنا الفسيح المتعدد الأجناس لايمكننا أن نستغنى عن وسيلة مشتركة للاتصال . وأصبحت اللغة الروسية بالطبع تقوم بانجاز هذا الدور . وكل فرد يحتاج لهذه اللغة ، وقد حدد التاريخ نفسه ان تتطور العملية الموضوعية للاتصال على أساس لغة أكبر الأمم» (لأن كل الأمم متساوية ولكن بعضها أكثر مساواة ! ج) .

ولماذا أصر الروس على استخدام اللغة الروسية فى الأمم المتحدة ولم يكتفوا بالإنجليزية

التى يتكلمها عدد أكبر ؟ وترى هل يقبل الروس بهذا المنطق فتكون اللغة الصينية هى لغة الاتصال العالمية . أم أن النص بحاجة إلى تصحيح بسيط ليصبح : لغة الأمة الكبرى المسيطرة ؟!

ويستشهد الأخ الأكبر جورباتشوف بمثال غريب فيقول : «وتصوروا ما الذى كان يحدث إذا ما تحدث أفراد كل أمة انتقلت إلى الولايات المتحدة بلغتهم الخاصة ، ورفضوا تعلم اللغة الانجليزية ! وينطبق نفس الشيء على هذا البلد ، حيث برهن الشعب الروسى بكل تاريخه أن لديه قدرة هائلة على النزعة الأممية (!!!!!ج) وعلى احترام الشعوب الأخرى والنوايا الطيبة» .

والمغالطة أكبر من مفضوحة ففى أمريكا لم يتم نشر اللغة الانجليزية لحساب الأمة الانجليزية بل بعد هزيمتها والتحرر منها ، والثانى أنه لم تكن هناك أمم مقهورة مجبرة على تعلم الانجليزية ! بل أفراد هاجروا من بلادهم واختاروا بحرية تكوين أمة جديدة لغتها الانجليزية .

وحركة البعث التى تجتاح الجمهوريات الإسلامية الان تجمع بين العودة للدين والثقافة تقول التايم : «وإلى جانب حرية العبادة يزداد اهتمام المسلمين فى وسط آسيا بالحفاظ أو بعث ثقافتهم» .

كذلك مزق الروس الأمة الإسلامية إلى عشرات القوميات والأسماء واللغات واللهجات على طريقة الاستعمار البورجوازى فى تمزيق الشعوب ، والغريب أن جورباتشوف يفخر بذلك الآن عندما يتحدث عن اقليم القوقاز فيقول : «إن منطقة كراتشايفو ـــ تشيركاسيا ذات الحكم الذاتى يقطنها كراتشايفون وشركس وروس وأبازنيون ونوجيون وأوستانيون ويونانيون وممثلو قوميات أخرى» وهذه هى لعبة ستالين وبريجنيف الخبيثة فقد قام الروس بتهجير السكان بحيث لا تكون لمنطقة واحدة وحدة سكانية تمكنها من التحرك فى اتجاه واحد كما رأينا فى عملية وضع أقلية أرمنية داخل جمهورية أذربيجان . والعكس بتقسيم الشعب الاذربيجانى بين عدة جمهوريات : اذربيجان وأرمينيا وجورجيا . ووضع اقليم أذربيجانى داخل محيط أرمنى !

وأخطر من عملية الخلط هذه عملية تمزيق الشعب فقد كانت البلاد الإسلامية يسودها المفهوم الإسلامى عن الوحدة فى المواطنة الإسلامية ثم التميز بالقبائل أو العائلات أو المذاهب . فجاء الروس وجعلوا من كل مجموعة عائلات ، قومية ، ذات كيان ولها الحق فى لغة وتمثيل فمزقوا الشعب الإسلامى شر ممزق . وطوردت العقيدة الإسلامية إلى حد الاستئصال لولا إرادة ربك ، واستقرت الإمبراطورية الروسية على جثة وأنقاض ملايين المسلمين فى المستعمرات الروسية السوفيتية الاشتراكية . ودفع المثقفون الروس ثمن خيانتهم لشعارات الثورة بل للمبادىء الإنسانية التى كانت تجتاح العالم كله . وكما كان من المؤسف أن يظهر أحرار انجليز وفرنسيون يطالبون باستقلال مصر والهند أو المغرب وتونس ، بينما خرست ألسن المثقفين الروس وضمائرهم فلم يظهر منهم مدافع واحد عن حرية شعوب المستعمرات الروسية .. أقول كما كان ذلك مؤسفاً ، فقد كان عادلا ما نزل بهم من استبداد ستالين ، الذى لمح جورباتشوف لبعضه ولم يصرح عندما قال : «ولمثقفينا تاريخ شاق . فالعديد من المثقفين ، بما فى ذلك أصحاب العقلية الديموقراطية ، الذين هاجموا النظام القيصرى ، بل وحتى كافحوا ضده . قد أرعبتهم الثورة واكتسحتهم موجة الهجرة البيضاء إلى الخارج ، حيث قدموا مواهبهم ومعرفتهم للآخرين . وكانت هذه خسارة كبيرة لمجتمعنا السوفيتى القليل الخبرة . وعانى المثقفون كثيرا ، بما فيهم المثقفون فى الحزب البلشفى ، وأنزلت بهم فى بعض الأحيان خسائر لا تعوض بسبب انتهاكات الشرعية الاشتراكية وأعمال القمع فى الثلاثينات . وكان ذلك أيضاً ضربة قاصمة لقدرة البلاد الثقافية» . (جورباتشوف ص ٩٣) .

نعم أقول غير آسف إن ذلك كان جزاء عادلا لأنه لا يمكن أن تكون حرة الأمة التى تستعبد غيرها ..

وأسدل الستار مدة سبعين سنة ، نسى فيها العالم ، المسلمين فى روسيا ، ونسى المسلمون خارج روسيا تاريخ هذه الروسيا الدموى التوسعى فى العالم الإسلامى ، بل وبدأت علاقات جديدة مع بعض الدول الانقلابية الإسلامية والعربية منها بالذات ، قدمت فيها روسيا على أنها نصيرة الشعوب بل ومحررتهم . واستمرت هذه الغفلة بين مد

وجزر إلى أن استيقظت الدنيا على الجثة المسماة بريجنيف تستأنف مسيرة ايفان وكاترين بارسال الجيش الروسى لاحتلال افغانستان فى ديسمبر ١٩٧٩ .. وتصادف ان كان ذلك مع فوران الثورة الايرانية .. وفتحت صفحة جديدة فى التاريخ الدامى للمسلمين والروس .

بقيت كلمة عن احتمالات التناقض الصينى — الروسى ومدى انعكاساته على وضع المسلمين فى البلدين ، وقد أشرنا إلى التناقض العام بين روسيا والصين وذهبنا إلى أنه هو التناقض الأساسى الذى سيشكل مجرى الأحداث فى البلدين خلال التسعينات وما بعدها ونحن نتفق مع مؤلفى كتاب التهديد «الإسلامى ». فى أن هذا التناقض يدور فيما يدور حول المسلمين ، وأن الحل قد يكون كامنا فى هذا التناقض ، وأن كلا من العملاقين ، حاول لفترة استخدام المدجنين من مسلميه ، حيث يتبادلون الشتائم والبيانات المضادة فى المؤتمرات الإسلامية . وعلى سبيل المثال : «فى ١٩٧٩ عقد مؤتمر إسلامى فى طشقند للاحتفال بمرور عشر سنوات على صدور «مسلمو الشرق السوفيتى» برئاسة المفتى «بابا خان اوف» حضره وفود من الأردن والعراق والهند وتركيا وتونس وباكستان والكويت وايران ولبنان واليابان وبلغاريا والحبشة . أما البيان المشترك فقد ادان الاستعمار الإسرائيلى والأمريكى وجنوب أفريقيا .. **والصين طبعا !**

ولم تقصر الصين فى استغلال جريمة الروس فى أفغانستان ففى يناير ١٩٨١ لبى صالح انشيوى وهو إمام مسجد دونجسى ورئيس الجمعية الإسلامية فى بكين ، لبى دعوة لزيارة إسلام أباد وانتخب عضوا فى الرابطة الإسلامية وكان أول عمل قام به عند وصوله لباكستان هو شن هجوم عنيف على الاستعمار السوفيتى وعبر عن الاهتمام العميق من جانب المسلمين الصينيين باخوانهم الأفغانيين الذين يذبحهم **الكافرون الروس** . (التهديد) .

والقضية كما يصورها الكتاب هى وجود خمسين مليون مسلم فى وسط آسيا تمزقهم حدود مصطنعة تمر فى قلب جماعات من أصل واحد تجمعها اللغة والدين والثقافة والتقاليد التاريخية . تعداد سينكيانج قدر عام ١٩٧٨ بحوالى ١٢ مليوناً و ٦٠٪ منهم

مسلمون أتراك . وهو يرى أن سياسة الصين يمكن أن تثير القلاقل فى روسيا . خاصة وان الصين تملك حرية الحركة فى المجال الإسلامى بأكثر بكثير مما تملك روسيا وذلك للآتى : «تعداد المسلمين فى الصين عام ١٩٧٨ كان ١٣ مليونا فهم ١,٣٪ أو اقل من اثنين بالمائة من تعداد الصين . بينما تبلغ نسبتهم فى الاتحاد السوفيتى ١٨٪ ومن ثم فتشجيعهم بل حتى تسليحهم واغراؤهم بالاستقلال لا يشكل خطرا على الصين بل يحدث شرخا خطيرا فى جارتها اللدودة الفسيفسائية التركيب حيث يشكل الرعايا من غير العنصر السلافى السيد نصف مجموع السكان ، وبالمقابل نجد فى الصين أن نسبة الهان لا تقل عن ٩٤٪ » ويجب ملاحظة أن نصف المسلمين فى الصين هم صينيون ولذا فالإسلام فى الصين هو دين وطنى تقريبا بينما كان الإسلام ولا يزال ينظر إليه فى روسيا باعتباره كائنا غريبا معاديا .

وقد بدأت روسيا اللعب بالنار فى الصراع الإسلامى ، بعد الحرب العالمية الثانية ، عندما أعلنت جمهورية شرق التركستان بدعم علنى من السوفيت . ولكنها صفيت بعد استرجاع الشيوعيين سينكيانج فى ١٩٤٩ وتمت إزاحة كل القادة الموالين للسوفيت فى عام ١٩٥١ .

فى ١٩٥٦ بدأت الزعامة الصينية تنقل أعدادا كبيرة من الصينيين الهان للاستيطان فى سينكيانج وبعد سنتين وفى ظل القفزة الكبيرة للإمام التى كانت من طراز حملة ستالين لتصفية الإسلام فى الثلاثينات انتهى التسامح مع الأقليات وصودرت أملاك المسلمين وأوقافهم ، وطلب من المسلمين فى سينكيانج ، ضمن ما طلب منهم ، أن يتعلموا الصينية الهانية وان يتخلوا عن العادات البالية بما فى ذلك دينهم ! ثم أدت وحشية الثورة الثقافية إلى اثارة المقاومة بين كل الأقليات وبالذات المسلمين ، ففى ١٩٦٢ » فى اقليم «ايلى» وقعت مظاهرة معادية للصينيين قمعت بوحشية وقتل الكثيرون . وانتشرت أنباء المذبحة سريعا كما انتشرت الاضطرابات فى سينكيانج ليعقبها خروج جماعى . وقدرت المصادر السوفيتية عدد المسلمين الأتراك الذين عبروا الحدود الروسية بمائة ألف بينما اعترف الصينيون بستين الفا فقط .

ومنذ وفاة ماو بدأ الصينيون يحسنون صورتهم عند المسلمين ، ووقع أول تغيير فى الاستراتيجية فى آخر عام ١٩٨٠ عندما أعلنت الصحيفة الرسمية أن المنهاج الماوى القديم قد تخلى عنه ليحل محله منهاج عملى فى معالجة مشكلة القوميات واعترفوا بأن مركزهم فى سينكيانج قد تدهور بسبب الحملة على الدين خلال السنوات العشر الماضية . ولتعويض هذه الخسارة منعت كل الأنشطة الملحدة ضد الإسلام ولم يعد يعاقب على ممارسة شعائره . واعيد فتح المساجد وبناء مساجد جديدة . وقد لاحظ زائر أمريكى أنه فى طرفان بالصين يوجد أكثر من مائة مسجد عامر بينما بخارى التى تعد مركز إشعاع ثقافى فى التاريخ الإسلامى لا يوجد فيها إلا مسجدان » !

« فى ١٩٨٠ سمحت حكومة الصين رسميا للكازاك والاغور باستخدام الأبجدية العربية وهو ما يرغب فيه المواطنون المسلمون ، ويرحبون به للغاية » .

وبالمقابل اصدرت روسيا مجلتين بلغة الاغور والكازاك التى تكتب بحروف عربية ، مجلة اسمها «أرض الآباء» والثانية «ينى حياة» (الحياة الجديدة) .

« الصين تطالب بمناطق شاسعة من كازاخستان بما فيها العاصمة ذاتها آلما آلتا بحجة أن ولاتها فى القرن الثامن عشر طلبوا حماية الصين وحصلوا عليها .

« ويدرك الصينيون أى عبء ثقيل يمكن أن يفرضه الإسلام على روسيا وينظرون للمشكلة الإسلامية كعقب اخيل محتمل لموسكو ولذا يجب أن لا نستبعد خطوات أكثر إيجابية من الصينيين «وهناك أدلة عديدة على أن بعض الأقليات المسلمة فى روسيا وخاصة الكازاك والقرغيز ربما يرحبون بالصينيين فإن شعار : انتظروا حتى يأتى الصينيون وسنريكم ما نفعله بكم ، هو تعبير كثيرا ما يسمع فى وسط آسيا» .

ونحن نتوقع أن تحاول الصين لعب دور صديق الإسلام خاصة وأنها وقفت من قبل مع باكستان بينما انحازت روسيا وسلحت الهند ومكنتها من ضرب باكستان الضربة القاصمة ، وكانت قد وقفت من قبل مع الهند ضد الصين وقالت نشرة صينية :

«لقد تحالف القادة السوفيت منذ زمن بعيد مع الرجعيين الهنود لمعارضة الصين الاشتراكية» .*

وروسيا لا تخفى انحيازها ضد باكستان فمن بين كل القنابل الذرية التى فى آسيا لم يصدر الاتحاد السوفيتى بيانا يستنكر ويعرب عن قلقه إلا من إشاعات القنبلة المسلمة فى باكستان ، بينما تؤكد كل الدلائل أنه ساعد الهند فى إنتاج قنبلتها . وعندما وقع الغزو الروسى لافغانستان المسلمة وقفت الصين إلى جانب باكستان فى دعمها للمقاومة الافغانية بل ووضعت من شروط تطبيع العلاقات مع روسيا انسحاب هذه من أفغانستان . ولاشك أن اختيار الروس الحل الدموى لمشكلة المسلمين فى الاتحاد السوفيتى سيعطى كلا من الصينيين والمسلمين الفرصة لمحاولة هذا التحالف ، ولا أحد يدرى ما تأتى به الأيام .

حرب أفغانستان والبيريسترويكا

أول من أشار إلى الدور الذى لعبته الحرب الأفغانية فى تفجير البيريسترويكا فى الاتحاد السوفيتى ودعم حركة الحريات والإصلاحات فى روسيا ، هذا الدور الذى يماثل ما لعبته الحرب الفيتنامية فى ثورة الإصلاحات التى قامت فى أمريكا فى الستينات والسبعينات .. وهذا الأثر ليس من ادعائنا بل لدينا وثيقة سوفيتية عنه وقعت فى يدى قبل أربع سنوات وقد علقت عليها يومها بهذه الكلمات : « اليوم وقد تجددت قضية الاستعمار الروسى للوطن الإسلامى ، بغزو أفغانستان .. هل يمكن القول بأن الطبقة المثقفة فى روسيا قد تنبهت لغلطتها التاريخية وهبت تمحو عن نفسها عار التواطؤ مع القوى الإمبراطورية ، وقبولها لغيرها من الشعوب ما لاترضاه لنفسها من قهر حكومتها .. ؟! هل سيقبل « الأحرار » الروس بكل تاريخهم الثورى فى كفاح الاستبداد القيصرى والستالينى .. هل سيقبلون أن يكون المثقف الأمريكى الذى عارض غزو فيتنام أشرف منهم وأكثر التزاما ووعيا بحقوق الإنسان ؟! أم أن هذه الحرب قد أنبتت براعم تيار تحررى إنسانى .. أو أننى مجرد حالم أتعلق بقشة غير معروفة المصدر ولا الأهداف الحقيقية ، ومازالت تحمل بصمات الفكر الإمبراطورى وإن عارضت الغزو الروسى ؟!

لست أدرى ولكن القشة تصدرها جماعة معارضة داخل الاتحاد السوفيتى تطلق على نفسها إسم « الإصلاحيين » والنشرة السرية التى تصدرها اسمها « ساميزدات » وكاتب المقال وقع باسم « خوفانسكى » (يكاد يكون إسماً عربياً مشتقاً من الخوف ! ولكن هكذا ورد فى نشرة « مشاكل شرق أوروبا » التى ترجمت النشرة للإنجليزية ووزعتها) .

والمقال بالطبع لا يرضى المجاهدين الأفغان ولا أنصار حق تقرير المصير للشعوب ، ولكنه كما قلنا يمكن أن يكون علامة لاتجاه الريح ولا ننسى أنه موجه للروس وليس للأفغان

ولا ننسى ما قلناه عن تجذر العقيدة الإمبراطورية فى الفكر الروسى ومن ثم فكاتب المقال فى النشرة السرية إما أنه يؤمن ، أو مضطر ، لمخاطبة قرائه على قدر عقولهم فهو يؤيد حق الروس فى فرض حدود آمنة ولو على حساب سيادة الدول المجاورة ويؤمن بحق روسيا فى إقامة نظام «صديق» فى أفغانستان ولا يطالب إلا بانسحاب على مراحل وغير كامل وبشروط ، إلا أنه يشهد بالطبيعة الاستعمارية للغزو السوفيتى يشهد برفض هذا الغزو من جانب الشعب الأفغانى .. وأكذوبة الادعاء بأنه تم تلبية لطلب هذا الشعب أو لمساعدته ! كما تشهد النشرة ببطولة ووطنية المجاهدين الأفغان ووحشية وإرهاب جيش الاحتلال والحكومة العميلة التى أقامها الروس ، فهو والمعارضة الروسية التى ينطق باسمها ، أشرف من المباحثيين الشيوعيين فى مصر الذين دافعوا عن الاحتلال الروسى ، ومازالوا ــ حتى اليوم ــ يصفون المجاهدين الأفغان بالعملاء والمرتزقة .. ! وبالنسبة لموضوعنا فإن النشرة الروسية تشير إلى تضامن المسلمين السوفيت مع إخوانهم فى أفغانستان . وأخيراً فإن الصحف الغربية التى نشرت المقال أشارت إلى احتمال أن يكون تسربه خارج الاتحاد السوفيتى من فعل أحد مراكز القوى المتصارعة فى الكرملين والتى تستخدم كراهية الحملة الروسية فى أفغانستان فى لعبة الصراع على السلطة .. ونسبته بالذات لمجموعة جورباتشوف الذى وجه نداء لآسيا (٢ أغسطس ١٩٨٦) جدد ذكريات نداء لينين لشعوب الشرق للتحالف مع روسيا ضد الاستعماريات الرأسمالية الغربية .. أو لعل الصراع مع الصين قد نبه قياصرة روسيا الشيوعيين إلى خطورة تحالف الصين مع شعوب آسيا المسلمة ، وبخاصة وأن سيبيريا أرض الصراع السوفيتى ــ الصينى المحتمل هى أصلا بلاد المسلمين . والأقلية المسلمة فى الصين ــ كما قلنا فى الفصل السابق ــ لا تشكل خطراً على استقرار ووحدة الصين ومن ثم لو تبنت الصين سياسة دعم حركات المقاومة الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى لمزقته شر ممزق .. والصين ــ كما لا يذكر أحد فى بلادنا ــ تضع شروطاً ثلاثة لتحسين العلاقات مع روسيا ، أولها : الجلاء عن أفغانستان .. فهل يخشى التيار الذى سرب هذه النشرة أن تطول حرب أفغانستان فيقوم هذا التحالف الإسلامى الصينى ؟! » .

هذا ما كتبته فى عام ١٩٨٦ وبالطبع تبخرت كل هذه الاحلام ، ليس فقط عندما سحقت الدبابات الروسية المسلمين فى باكو وهم يحملون فى أيديهم المصاحف وهى

مازالت فى أغلفتها البلاستيك ، بل عندما نجح جورباتشوف فى عقد تسوية مع الأمريكان استبقى بها الحكم الشيوعى العميل فى كابول وذبح الأمريكان أو سمحوا للروس بذبح الرئيس ضياء الحق الذى كان متشبثا لأسباب عدة بضرورة إزالة الحكم السوفيتى من أفغانستان . ووضع الأمريكان باقة ورد على جثة الرئيس الباكستانى ، كما تفعل المافيا ، والوردة لم تكن إلا جثة السفير الامريكى شخصيا ، الذى قتلوه معه اخفاء لجريمتهم ! وتم وضع أفغانستان فى رعاية الهند حليفة روسيا وعدوة باكستان .. كما تم تحييد ايران بوسائل عدة ربما كان منها غباء المجاهدين وبعض أصدقائهم الذين أصروا على استبعاد الشيعة من الحكومة الإسلامية . وقيل أيضاً ان بعض المنتشين بمكانة ايران كزعيمة ومركز قيادة الثورة الإسلامية ، لم يسعدهم أن يظهر مركز آخر يزاحمهم ، مركز هزم روسيا وليس فقط الشاه خصوصا وان هذا المركز — أفغانستان — سنى . ولعلهم جميعا يعضون أصابعهم الآن .. المجاهدون الذين تبخر حلمهم فى دخول كابول ، وايران التى افتقدت المساعدة الحاسمة من أفغانستان المسلمة عندما بدأت المذبحة فى أذربيجان واستغاثوا باشقائهم فى ايران فعز المغيث .. وآه كم دفعت شعوب الإسلام ، عبر التاريخ ، ثمنا فادحا للحساسيات المذهبية والعرقية .

أقول تبخر الحلم ولذا سأكتفى بأن أنقل من تلك النشرة السرية التاريخية ما يلقى الضوء على تأثير الحرب الأفغانية فى التطورات الروسية الأخيرة على صعيد البيريسترويكا . قالت النشرة السرية الروسية :

« بعد ست سنوات من إحتلال أفغانستان لا يبدو الجيش السوفيتى أقرب للنصر منه يوم بدأ هذا الغزو ، ولاشك أن تجربة القرن العشرين تؤكد أنه من المستحيل هزيمة حركة شعبية مثل حركة « المجاهدين » إذا ما توافرت لها قيادة صالحة ، ودعم شعبى ومساعدات محسوسة من الخارج . (كما حدث للجزائر وفيتنام — المترجم) . وهكذا نرى أنه بقدر ما يتضاءل الأمل فى حل عسكرى تنمو الحاجة لتسوية سياسية . وخلال ست سنوات من حرب أفغانستان ازدادت أزمة الوفاق تدهوراً وتعقدت العلاقات مع الصين ونمت عداوة الاتحاد السوفيتى فى الدول الإسلامية ، وظهرت صعاب جمة فى علاقاته مع دول العالم الثالث .. كما أن الحرب تشكل عبئا ثقيلاً على الاقتصاد السوفيتى

وتسبب خسارة بشرية متزايدة ونمو روح الاحتجاج فى الطبقات الدنيا وظهور الخلافات فى القيادات . ويبدو الحل الجاد للمشكلة الأفغانية ممكناً إذا ما اعترف الاتحاد السوفيتى على الأقل بخطأ ، ولا نقول جريمة ، هذه المغامرة . وإذا ما جرت مفاوضات بين كل الأطراف التى تورطت فى الصراع . وموسكو مجبرة على قبول المفاوضات ليس فقط بسبب هزيمتها فى ميدان القتال بل أيضاً بسبب العبء الذى تشكله الحرب على الاقتصاد الروسى . فالحرب تستنزف جانباً ضخماً من الموارد والاتحاد السوفيتى فى أمس الحاجة إليها ، لتطوير هياكله الاقتصادية بعدما تأكد جورباتشوف من مصاعب تطوير هذا الاقتصاد ووضع برنامجاً موسعاً لزيادة معدل النمو ، تكنولوجياً وعلمياً ولا حاجة للقول إنه يصعب الجمع بين إعادة تطوير الاقتصاد وشن الحروب .

« يضاف إلى ذلك مأساة الخسائر البشرية التى تسببها الحرب فوفقاً لأكثر الإحصائيات تواضعاً تقدر خسائر قواتنا ما بين عشرة آلاف قتيل وخمسة وعشرين ألف جريح .. (هذا حتى عام ٨٥ ج) والسخط على الحرب يزداد فى القطاعات الشعبية التى يجرى تجنيد المقاتلين منها .. ومن المعروف أن هذا السخط فى مناطق الحدود اتخذ شكل المعارضة المكشوفة . وبالطبع فإن هذا اللون من المعارضة يسحق وبلا رحمة ومن ثم فقلما تصل أخبارهم للرأى العام ، ومع ذلك فإن مظاهرات الاحتجاج التى وقعت فى ربيع ١٩٨٥ فى يريفان Yerevan أصبحت جد معروفة . وفى يونية وقع فى استراخان صدام بين المجندين الذين جاءوا إلى المدينة من شمال القوقاز ومعظمهم من الشيشيين وبين القيادة العسكرية ، عندما أخبرتهم أنهم يدربون للعمل فى أفغانستان . فلما علموا ذلك رفضوا الذهاب إلى هناك وقال الشباب الشيشينى .. إنهم لا يرغبون فى قتل إخوانهم المسلمين . ووقع صدام عنيف حسم بالقوات المسلحة وسقط فيه قتلى وجرحى من الجانبين (السلطات السوفيتية والمجندون المسلمون — المترجم) وإن تكن النسب غير متعادلة بالطبع .. وكانت هذه هى أول مقاومة للحرب تضطر السلطات فى الاتحاد السوفيتى لقمعها بقوة السلاح . وقال كتاب «التهديد الإسلامى للاتحاد السوفيتى» : « وقعت ثورة فى آلما آلتا عندما رفض الكازاك ترتيبا أمرت به السلطات يقضى بالاقتصار على إجراء جنازة عسكرية لقتلى الحرب الأفغانية وليس دفنهم وفقا لتقاليد المسلمين » .

(ص ١١٤) وقال المؤلفان : « فى ١٩٨٠/١٩٨١ بدأ الحديث عن قدرة الأخ الأكبر فى حفظ القانون والنظام وكثر الحديث عن الحركات الرجعية الإسلامية العميلة . كان الإيحاء واضحا : ضربناكم مرة وسنضربكم ثانية وقد تحدث يوسف زاده رئيس المخابرات السوفيتية فى أذربيجان عن التعصب الإسلامى والمخربين عبر الحدود» (تانى ! ج) .

ونعود للنشرة الروسية التى تقول : «هذه الحوادث وغيرها لا تسمح للمرء بأن يتوقع لا فى المستقبل القريب ولا البعيد المرئى ، إمكانية قيام حركة معادية للحرب بمثل قوة وشمول تلك التى هزت الولايات المتحدة فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات .. ذلك أن الحرب الأفغانية هى قضية مهمة ولكنها ليست أساسية فى الحياة السياسية السوفيتية ، وأهم من ذلك أن سلطة القمع فى الاتحاد السوفيتى أقوى عدة مرات منها فى الولايات المتحدة .. وكذا فالنشاط السياسى للجماهير أضعف بكثير فى الروسيا منه فى أمريكا ورغم ذلك فإن القيادة السوفيتية لا يسعها أن تسقط من حساباتها مظاهر الرفض الجماهيرى للحرب» .

وقالت نشرة المعارضة السوفيتية :

«إن السبب الرئيسى لفشل جيش الغزو السوفيتى لا يرجع إلى نوعية الأسلحة ولا إلى كفاءة التنظيم أو القيادة بل هو سبب سيكولوجى ، فقد قال الموجهون السياسيون فى تبرير احتلال أفغانستان إنه لمواجهة غزو المرتزقة الأمريكيين والصينيين ! ولكن لأن معظم المجندين من آسيا الوسطى وخاصة الطاجاك يعرفون لغات القبائل الأفغانية ، فإنهم عندما وصلوا إلى أفغانستان سرعان ما اقتنعوا بأنه لا وجود للأمريكيين أو الصينيين هناك لا فى الماضى ولا فى الحاضر .. (فى أفغانستان يعيش مليونان من الطاجيك ومليون أوزبكستانى و ٤٠٠ ألف تركمانى ، كذلك فإن كازاغستان وقرغيزيا لهما حدود مشتركة مع الصين) .

«فلما حل الجنود السلاف محل الجنود المسلمين فى أفغانستان ظهرت مشاكل من نوع آخر» .

قال كتاب «التهديد الإسلامى للاتحاد السوفيتى» فى فبراير ١٩٨٠ بدأ سحب

المسلمين وإحلال عسكر روس محلهم» . وقال المؤلفان : « قامت أسواق سوداء فى كابول والمدن الأخرى لبيع المصاحف لعسكر الاحتلال السوفيتى وبعضهم كان يتلقى دروس الدين من الأفغان» (ص ١١٣) الذين ذهبوا لتحرير أفغانستان من رجعيتهم !

أما النشرة السوفيتية فتقول : «إن السوفيت الذين قيل لهم إنهم ذاهبون لتقديم مساعدة أخوية أممية لشعب الأفغان قوبلوا بكراهية عامة ومقاومة وطنية بدلاً من العرفان بالجميل .. !! مما أدى إلى تدهور معنويات قوات الاحتلال .. وانتشر إدمان المخدرات بين المقاتلين السوفيت وهى ظاهرة تسجل لأول مرة فى تاريخ الجيش السوفيتى .. ومن أجل الحصول على المخدرات دخل بعض الجنود والضباط فى عمليات تجارية مع العدو فكانوا يبيعونه السلاح والذخيرة والملابس والمؤن» . (لاحظ علامات تحول التاريخ وارادة الله فى بعث وزوال الأمم .. العسكر المسلمون يشترون المصاحف من السوق السوداء فى أفغانستان ، بينما يشترى الجنود الروس المخدرات ج) .

« وانهيار معنويات الجنود صاحبه زيادة فى القمع الوحشى للمدنيين المسالمين .. وفى فبراير ١٩٨٥ اتهمت لجنة خاصة بحقوق الإنسان تابعة للأمم المتحدة ، اتهمت الاتحاد السوفيتى بالتجاهل ، وأحياناً الإهمال التام لمقررات جنيف الخاصة بحقوق المدنيين وأسرى الحرب . وبنص كلمات خبير الأمم المتحدة : «إن القوات السوفيتية مدانة بقصف القرى وقتل المدنيين المسالمين والتعذيب الشامل للأسرى من قوات المقاومة .. إلا أن الأكثر رعباً هو ما يرويه الجنود الروس العائدون من الحرب عن التنكيل الذى ينزل بالناس العزل . ولا يخفى أن الجنود الذين يمارسون هذه الأعمال لا يمكن أن يتحلوا بالانضباط والتضحية فى ميدان المعركة . إن تورط الجنود فى أعمال القمع يحطم روحهم القتالية .. »

« إن المرحلة الحالية من الحرب التى بدأت عام ١٩٨٥ تتميز بفقدان القوات السوفيتية للمبادرة الاستراتيجية ، وزيادة ما لدى رجال المقاومة من الأسلحة المقاومة للدبابات والطائرات إلى الحد الذى جعل العمليات السوفيتية فادحة التكلفة باهظة الخسارة وغير مقبولة .. ومعارك السيطرة على المواقع الاستراتيجية المهمة أصبحت تستغرق عدة شهور وتحتاج لتحريك قوات ضخمة وتسبب خسارة فادحة للجانبين .

وكما نعلم فإن نظرية حرب المقاومة التى يشنها الفلاحون والتى وضعها «ماوتسى تونج» وغيره من المنظرين الثوريين فى العالم الثالث تقرر أن الحركة يجب أن تمر بثلاث مراحل :

خلق القاعدة فى القرية .

محاصرة وعزل المدن .

ثم اقتحام هذه المدن .

وتدل كل الظواهر أننا نشاهد فى أفغانستان الآن الانتقال من المرحلة الثانية إلى الثالثة فهى لم تعد حرب فلاحين فيما يخص رجال المقاومة . فإن كان ولابد من تصنيفها كذلك فهى فى المرحلة الثالثة أى مرحلة اجتياح المدن ــ على سبيل المثال معركة مدينة خوست khowst فى إقليم Paktia باكتيا ــ».(لاحظ أن ذلك ما حققه المجاهدون الأفغان بشهادة الروس قبل الصفقة التى عقدتها أمريكا مع جورباتشوف ، ثم بعد أن جلا الروس وكان المفروض أن تحرر المدن بلا جهد .. تآمر الأمريكيون مع حكومة بنت بوتو وقادوهم إلى هجوم فاشل ضد جلال اباد وقطعوا الإمدادات وبدأت عمليات اغتيال القادة واستقر حكم العمالة فى كابول ولو إلى حين ج) .

نتابع الاعترافات الروسية التى لم تنشر قط بالعربية :

«إن الفشل العسكرى فى أفغانستان سيؤدى حتماً إلى تقوية تيار المعتدلين فى القيادة السوفيتية . وتستطيع القيادة الجديدة فى الكرملين برعاية جورباتشوف التنصل من مسئولية الحرب فى أفغانستان فهى لم تكن من قراراتها .. وهذا فى حد ذاته يخلق جواً مناسبا لبدء محادثات السلام مع الأفغانيين .

إن حكماء الكرملين لم يتكلموا حتى الآن بوضوح . بالرغم من أنه فى وقت كتابة هذا المقال (٢١ ديسمبر ١٩٨٥) نشرت البرافدا ما يعد سابقة أولى من نوعها فى الصحافة السوفيتية وذلك فى شكل مقال بدون توقيع ، مما يؤكد صفته الرسمية وقد بدأ المقال بعبارة تقول : دعونا نفتح حواراً واسعاً .. ثم تلا ذلك اعتراف مثير ــ بمقاييس الصحافة السوفيتية ــ إذ قالت إنه لا يوجد إجماع على قبول ثورة ابريل ولا حكم قوى

الشعب (قوى الشعب ؟! ج) فى أفغانستان ولا حتى بين صفوف العمال .. ومن ثم يجب السعى للدخول فى حوار موسع حتى مع العناصر المعادية للثورة باسم الوطنية ..

إن هذا المقال ربما كان أول مؤشر على وجود اتجاه بين القيادة السياسية يبحث عن حل سياسى غير عسكرى للمشكل الأفغانى» ..

كذلك تشير النشرة السرية إلى التيار الرسمى الذى كان سائدا والذى دافع صراحة عن الحرب واستمرارها . هذا التيار الذى تصفه المعارضة فى هذه النشرة السرية بأنه : «الجناح الرجعى الشوفينى المرتبط بالعسكريين الذى يحاول الدفاع عن الغزو السوفيتى لأفغانستان بالدفاع عن مبدأ الحرب وفوائد الحرب أى حرب ، للمجتمع الروسى ! (نفس المجتمع الذى خلب لب المغفلين سنوات عدة بحركة أنصار السلام .. أما عندما يحارب الروس لتوسيع نطاق الإمبراطورية فعندها يظهر للحرب سبع فوائد ج) فقد كتب أحدهم وهو المدعو أ . بروخانوف مقالاً نشر فى ليتراتشرنابا جازيتا ٢٨ أغسطس ٨٥ كشف فيه اتجاهات هذا النجاح بوضوح وهو أن الحرب أفضل من السلام !! فعلى حد قوله «خلال سنوات السلام المريحة يتحلل المجتمع ويصدأ الجيش فى معسكراته ويفقد مؤهلاته القتالية ، أما الحروب فتنعشنا وتقوى الضبط والربط فى الجيش . وتجدد شباب الأمة» . ولم ترد كلمة واحدة على لسان بروخانوف هذا عن الاشتراكية أو الأممية أو التقدم الاجتماعى . وإن كان قد ذكر الثورة مرة ولكن فى معرض خصوصيتها الأفغانية . ولكنه قال نحن ندافع فى أفغانستان عن المصالح العليا للدولة وتوازن المجال الإقليمى على المستوى العالمى .'.

نعم التوازن الإقليمى «وهى صياغة لفظية جديدة للتعبير القديم : المجال الحيوى» (شعار كل الاستعماريات من روما إلى إسرائيل بل للأسف شعار جورباتشوف الآن وصبيان المخابرات الروسية فى بلادنا الذين يتحدثون عن مخاطر تفكك الاتحاد السوفيتى إذا ما استقلت شعوبه المقهورة وخطر ذلك على التوازن العالمى ، بل والأخطر من ذلك هو قولهم ليس من الحكمة زعزعة دولة تملك أسلحة نووية والكلام لك ياروسيا واسمعى ياجارتنا إسرائيل ، فهذا الذى كتب على لسان الشيوعيين فى مصر إنما يراد به التحذير

من خطر الانتفاضة على أمن إسرائيل الذى قد يضطرها لاستخدام القنبلة ، وهو كلام غير مستغرب إذا ذكرنا أن هؤلاء الشيوعيين أقرب لإسرائيل منهم لروسيا !! ج) .

قالت النشرة التى نظن أن جورباتشوف كان يصدرها سرا :

«ولكن مهما يهذى السوفيت الشوفينيون ودعاة الهيمنة ، فإن التسوية السياسية للأزمة الأفغانية أمر تفرضه ظروف موضوعية غير قابلة للتغيير فعاجلاً أو آجلاً ــ ومن الأفضل طبعاً أن يكون عاجلاً قدر الإمكان ــ ستقتنع موسكو بضرورة الحوار بين متساويين وأن هذا الحوار المتكافىء هو سبيلها الوحيد للوجود فى أفغانستان . ومن هذا المنطلق دعنا نرى ما هى طبيعة الحل السياسى الممكن للمشكلة» .

من الواضح أن انسحاباً من طرف واحد للقوات السوفيتية من أفغانستان لن يضع حداً لإراقة الدماء أو الحرب الأهلية ، وبالتالى فإذا كان الاتحاد السوفيتى يرغب فى إنهاء الحرب وإقامة دولة صديقة مستقرة عند حدوده الجنوبية فيتوجب عليه أن يبدأ محادثات مباشرة مع المجاهدين . ولا حاجة للقول بأنه يجب أن يسبق ذلك الاعتراف بهم كمناضلين والكف عن وصفهم بأنهم عصابات (دشمان) أو معادون للثورة (باشمان) . (اقترح أن يكتب هذه العبارة كل وطنى على ورقة مقواة ويبرمها ويضعها فى أعين كتاب حزب التقمم الذين استخدموا هذه العبارات بالذات فى التطاول على المجاهدين ! ج) .

«ونقترح مفاوضات مباشرة مع القيادة السياسية للمقاومة الأفغانية وبقدر ما نعجل فى بدء خطوات التسوية السلمية بقدر ما نسد الطريق على نفوذ أى طرف ثالث (الغرب ــ إيران ــ باكستان) على حكومة الجمهورية الأفغانية المقبلة وانسحاب القوات يجب أن يتم تدريجيا ويمكن أن يستبقى عدد معين من جيش الاحتلال فى أفغانستان لفترة انتقالية !! ج) .

وفى هذه المحادثات سيكون من الضرورى الحصول على ضمانات للحدود السوفيتية وعدم التعرض للعناصر التى عملت للسوفيت وإدارة كرامال ، على ألا يكونوا مدانين

بجرائم من أى نوع .. ويجب أن يقترن الانسحاب السوفيتى باجراء انتخابات حرة ، وهنا يمكن أن تشكل روديسيا سابقة للتسوية المنشودة فى أفغانستان : إذ اندمجت القوات المتنازعة هناك فى جيش واحد .. وعلى كل الأحوال فإن أفغانستان ستكون فى حاجة ماسة للمساعدات الاقتصادية السوفيتية والخبراء السوفيت . وهذا سيعطى الاتحاد السوفيتى عدة أوراق لصالحه فى المفاوضات مما يعزز الآمال فى سلم مشرف . الأمر الذى يتطلب تغييراً جذرياً ومتنامياً فى السياسة ، واستعدادا من الاتحاد السوفيتى للتنازل .

إن الحركة المعادية للحرب لا تستطيع أن تلعب فى الظروف الحالية دوراً حاسماً ولكنها قادرة على لعب دور مهم فى عزل «البروخانوفيين» وتقوية تيار الواقعيين فى القمة الحاكمة . وبالمقابل فإن المظاهرات المعادية للحرب التى وقعت فى ١٩٨٥ تشكل عاملاً سياسياً مهماً . إنها دليل على مشاعر الجماهير على الأقل فى مناطق الحدود .. دليل بداية نشاط سياسى جديد يحل محل الخمود واللامبالاة السياسية التى ميزت موقف الجماهير فى عهد بريجنيف» .

« إن الحرب الأفغانية يمكن أن تعطى دعماً روحياً مهماً للجناح اليسارى فى حركة الإصلاحيين . ولو أن دورها ليس كبيراً مثل دور الحرب الفيتنامية فى المجتمع الأمريكى فى الستينات إلا أنه لا يصعب على المرء أن يرى أكثر من وجه شبه بين الحركتين وخاصة تطور معارضة الشباب واليسار الجديد فى الولايات المتحدة . إن ميول شبابنا المعادية للحرب قد أصبحت تمثل مشكلة لقيادة القوات المسلحة وإذا استطاع هذا الشعور أن يكتسب صيغة سياسية أكثر تحديداً فستكون له نتائجه الخطيرة على المجتمع كله» . ا هـ .

هذا ما كانت المعارضة فى الاتحاد السوفيتى تتكلم به فى ديسمبر ١٩٨٥ ... وحدث فعلا ما كان مرجوا : تفجرت البيريسترويكا

نعم ! حرر المجاهد الأفغانى ، غازى أرضه ، الإنسان الروسى المقهور ، ولكن بدلا من أن تنشأ علاقة جديدة بين القومية الروسية الحرة والأمة الإسلامية المستقلة ، اختار جورباتشوف عقد صفقة مع زعيمة الإمبريالية ؛ صفقة أفضل مما عقده نيكسون مع

سلفه ، حول فيتنام . فإن صفقة الامريكان مع جورباتشوف ضمنت له الانسحاب من أفغانستان والاحتفاظ بعملائه فى الحكم ، العملاء الذين اعترف هو فى تلك النشرة السرية أنهم لا يمثلون أحدا . لا .لأنه أذكى ولا أقوى من الأمريكان ، ولكن بسبب العامل المشترك الذى يتفق عليه الطرفان وكان عنصرا ضمن عدة عناصر فى تسهيل الاتفاق ، ألا وهو كراهية قيام حكم إسلامى ثورى فى أى بلد من العالم . وامتدت الصفقة مع الامريكان من تهجير اليهود إلى الانسحاب من شرق أوروبا وسحق الحركة الوطنية فى الجمهوريات المسلمة والتفرغ لمقاتلة الصين باسم الحضارة الأوروبية التى لم يجد الزعيم الروسى نسبا يربطه بها إلا المسيحية !

وأيد جورباتشوف ، برنامج ستالين ومنطقه بالكامل فى الاتحاد القهرى وحجته أن بلاد المسلمين خلف الأورال أغنى من بلاد الروس غرب الأورال : « اننا نولى اهتماما خاصا للمناطق شرق الأورال التى تفوق قدرتها الاقتصادية الجزء الأوروبى من الاتحاد السوفيتى مرات عدة » .

عدنا لحديث أهمية الإمبراطورية فى رخاء إنجلترا وفرنسا وهولندا .. وياويل الشعوب الصغيرة الغنية من اهتمام الأقوياء ، الذى يأتى عادة فوق الدبابات !

وعاد جورباتشوف يردد المعزوفة الستالينية عن الوطن السعيد المتعدد القوميات يقول : « إننا نعيش فى بلد متعدد القوميات . وهذا عامل من عوامل قوته أكثر مما هو من عوامل ضعفه أو تفككه . كانت روسيا القيصرية تسمى بسجن الشعوب . وقد قضت الثورة الاشتراكية على القهر القومى وانعدام المساواة . وضمنت التقدم الاقتصادى، والفكرى والثقافى لكل الأمم والقوميات . وفيما مضى امتلكت الأمم المتخلفة صناعة متقدمة وبنية اجتماعية حديثة . وارتفعت إلى مستوى الثقافة الحديثة رغم أن بعضا منها لم يكن لديه قبل ذلك أبجدية خاصة به » (البيرويستريكا ص ١٣٩) .

وهى مزاعم أثبتنا وشهد العالم كله ، بطلانها ، فالجمهوريات الإسلامية التى تنتج الآن أكثر من نصف الانتاج الزراعى والثروة المعدنية هى أكثر الجمهوريات فقراً فى الاتحاد السوفيتى ، وتأملوا ماذا جرى فى هذه البلاد بعد قرن أو قرنين على الأكثر من

دخولها فى عالم الإسلام .. احصوا نوابغ الفكر ومشاهير العلم على المستوى العالمى من ابن سينا والبخارى والخوارزمى والبيرونى والترمذى .. الخ وقد أعيد فى لبنان نشر واحد من كتب التراث هو «التدوين فى أخبار قزوين» يقع فى أربعة أجزاء ترجمه مؤلفه عبد الكريم بن محمد الرافعى القزوينى لأكثر من ثلاثة آلاف من علماء قزوين حتى القرن السادس الهجرى ! وقد أشرنا إلى المكتبة السلطانية العامة فى سمرقند وكيف أخبرنا ابن سينا عن وجود قاعة خاصة بالمؤلفات اليونانية القديمة ، وكيف تدهور حالنا حتى أصبح لويس عوض يظن أنه افزعنا عندما قال ان أبا العلاء المعرى كان مطلعا على كتابات هؤلاء اليونانيين وهو فى الشام !

ومن ثم فإن فخامة الرئيس جورباتشوف إما جاهل بتاريخ هذه الجمهوريات وحضارتها ، أو أنه يعتمد على جهل سامعيه . فهذه الشعوب كان لها انتاجها الثقافى الذى أثرى الفكر البشرى ، وساهم فى التقدم الإنسانى ، بما انتجته من علوم بالابجدية العربية قبل أن يكتشف الروس الكتابة !

ثم قارنوا ذلك بما انتجته هذه الشعوب بالابجدية الروسية .. ! ومن نبغ منهم فى ظل الحكم الروسى ، المسيحى ثم الشيوعى .. بل حتى المناصب البيروقراطية التى لا تحتاج لنبوغ بل مجرد الاعتراف بشيء من المساواة ، حتى هذه المناصب ، لم تكن متاحة لهم ، بل تقول الإحصائيات ، انه منذ استيلاء الشيوعيين على المناطق الإسلامية فى العشرينات لم يصل إلى عضوية المكتب السياسى إلا ثلاثة فقط من أصل إسلامى أى خلال سبعين سنة ! ولا يكاد يوجد اسم واحد معروف ولا حتى على نطاق الاتحاد السوفيتى !

ولا شك أن ما وقع فى الاتحاد السوفيتى منذ صدور كتاب جورباتشوف ، من ثورات القوميات من جميع الأديان والأصول يكذب ادعاء جورباتشوف الفخور . ويؤكد أن كل ما حدث هو بالضبط كما قال : حلت دولة محل دولة : «قامت واحدة من أقوى الدول فى العالم لتحل محل الإمبراطورية الروسية المتخلفة ، شبه الإقطاعية وشبه المستعمرة» . وقد تم ذلك بقوة الجيش الروسى ، أو كما قال جورباتشوف : «ولعبت الأمة الروسية دورا بارزا فى حل المسألة القومية» (ص ١٤١) نعم حلتها بالسكين والمقص ، ومازالت تحلها بنفس الأسلوب . وكان جورباتشوف واضحا للغاية عندما

أكد أن القانون الروسى أى السيف والنطع سيواجهان أية محاولة لاستقلال المستعمرات هذا الاستقلال الذى نسبه كعادة الإمبرياليين لليد الأجنبية إذ يقول : «وهناك بالطبع عدد محدود من الناس فى الغرب ، وفى الشرق كذلك ، يودون أن يقوضوا الصداقة والوحدة بين شعوب الاتحاد السوفيتى . بيد ان هذا الأمر مختلف تماما ، فهنا يقف القانون السوفيتى يقظا يحمى منجزات السياسة القومية اللينينية» . (البيروستريكا) .

انه قانون ستالين الذى يدعى جورباتشوف الثورة عليه .. ولن يحقق إلا القمع والدم والكراهية والتربص .. ثم الديكتاتورية ..

نقطة البدء هى الاعتراف باخطاء الماضى لا التباهى بهذا الماضى الدموى ، الإمبراطورية الروسية لم تكن أفضل من البريطانية أو الفرنسية ويجب أن تلقى نفس المصير .. وهاهى كل القوميات بلا استثناء ، ما عدا الروس ، يرفضون الصورة الوردية الكاذبة التى يقدمها جورباتشوف عن الامبراطورية الروسية . كلهم يرون فيها سجن الشعوب وكلهم يريدون الافراج بصورة أو أخرى .

ومن المثير أن جورباتشوف وهو يعطى أمره بزحف الدبابات لضرب الوطنيين الاذربيجانيين لم يجد ما يبرر به فعلته إلا القول بأنه ذاهب لضرب المسلمين الأصوليين المتعصبين وصدق الشاعر :

أبعد هذا التناهى فى تعصبهم

يعزى التعصب للإسلام والتهم .

البداية .. وليست الخاتمة .. !

نعم .. انها مجرد البداية ، على جميع المستويات ، ولسنا نذهب إلى قول المهرجين إن عالما جديدا يولد أو ان فجر حضارة السلام والرخاء والحريات قد بزغ .. إلى آخر ما يروجه عملاء الكبار . نحن أمام محاولة جديدة لإعادة تقسيم العالم .. وإذا كانت هناك وليمة فنحن الذبيحة . فلا معنى للصخب ! وإذا كان للبيروسترويكا من فضل يستحق الاحتفاء به ، فهى أنها جردت عملاء الاتحاد السوفيتى من سلاحهم المفضل ، وهو اتهام كل من ينتقد روسيا بالعمالة للإمبريالية والرجعية .. الخ لأنه بفضل جورباتشوف الذى الف كتابه بناء على اقتراح من الناشرين الامريكيين بل وعرض الكتاب عليهم قبل نشره ، وأدخل عليه التعديلات التى طلبوها ! اقول بفضل جورباتشوف أصبحت روسيا نائمة فى أحضان الإمبريالية تعاشرها معاشرة الأزواج . ولم يعد للفظة الإمبريالية أى معنى ، فقد اختلطت الأمور وذابت الحدود .

وكما باع الغرب شرق أوروبا لستالين فى يالتا وبوتسدام ، باع جورباتشوف نفس البلاد للغرب فى جنيف وريكيافيك .. أما ما عدا ذلك فلا تغيير — على الأقل فى مخطط المتفقين — سيظل الأقوياء أقوياء جبارين ، وسيبقى الأغنياء أغنياء مستأثرين ، وسيزداد وضع الضعفاء تدهورا ، والفقراء بؤسا وفاقة . وستزداد الهوة بين الأقوياء المترفين والفقراء المستضعفين اتساعا ، حتى تصبح كما حذرنا من عشرين عاما ، مثل الهوة التى تفصل الرجل عن القرد مستحيل تخطيها . وقلنا وقتها ان السبيل الوحيد لاستمرارنا بعد حدوث هذه الهوة ، هو موافقة الدول « الإنسانية » على إطعامنا كما تطعم قرود المعامل مقابل استخدامنا كقطع غيار أو لتجربة الأدوية والجراثيم ، على أن تتولى الإنسانية ، تنظيم نسلنا بالطبع وتطويره بما يوافق حاجات التجارب .

العالم لا يسير تحت راية جورباتشوف ، وبوش .. لا إلى الوحدة ولا إلى السلام

والمساواة ، وإذا كان التفوق العسكرى للولايات المتحدة وروسيا ، واتفاقهما يوحى بدخول العالم فى مرحلة تشبه اقتسام العالم بين بريطانيا وفرنسا فى القرن التاسع عشر ، إلا أن قوانين الحياة وبالذات القوانين الاقتصادية تحتم ظهور مراكز جديدة متمردة ، ومهما كانت قدرة القوة العسكرية فى فرض شروطها على الطرف الأكثر تقدما فى التكنولوجيا والاقتصاد ، فذلك تحكم مؤقت .. تماما كما استطاعت بريطانيا أن توقف التاريخ من سبعينات القرن التاسع عشر فتحتفظ بمستعمراتها حتى الحرب العالمية الثانية رغم تراجعها أمام الاقتصادين الأمريكى والألمانى ثم اليابانى ولكن لابد من يوم يفرض فيه الاقتصاد نفسه حربا ، أو تسليما من الطرف المتخلف اقتصاديا ، فيقبل إعادة تقسيم العالم من جديد لصالح الطرف المتقدم .

وإذا كنا نعتقد أن الأمر فى النهاية سيحسم فى المحيط الهادى وشرق آسيا حيث المواجهة الأساسية بين روسيا والولايات المتحدة من جانب والصين واليابان من الجانب الآخر إلا أن العوامل التى تؤثر على صراع العمالقة هذا هى :

هل ستستطيع فرنسا التغلب على العقدة الألمانية وتمضى فى مشاريع توحيد أوروبا وجعلها مرة أخرى القوة العالمية المرجحة ان لم تكن الأولى .. وفى هذه الحالة فإن الشرق الأوسط يعود مرة أخرى ليشكل الفناء الخلفى لأوروبا ويدخل الصراع العربى — الإسرائيلى مرحلة جديدة تماما ، تقول أوروبا فيه كلمتها ، بزعامة ألمانيا ، بكل مشاعر الحب اللدود بين الألمان واليهود ! وكل المصالح التى تراها أوروبا فى الشرق الأوسط ، نفس الشرق الأوسط الذى تعتبره إسرائيل مجالها الحيوى ولاتسمح حتى لامريكا بالتحرك المستقل فيه ؟!

هل تطل أوروبا الموحدة مرة أخرى على جنوب البحر الأبيض أم تفجر الوحدة الألمانية الروح القومية فى أوروبا فتتمزق أوروبا وتعود إلى حماية ووصاية العمالقة حتى المتخلفين منهم ؟!

هذه كلها قضايا مازالت فى التفاعل ، ومهما يكن تخطيط جورباتشوف وبوش ، فإن للأحداث منطقها ، والحركة قد تطلقها يد ولكنها إذا انطلقت يستحيل التحكم

الكامل فيها ومن يراجع كتاب جورباتشوف يجد أنه منذ عامين فقط لم يكن يتوقع ولا يوافق على الوحدة الألمانية .. وهاهو يستحثها ويستفيد منها فى ضرب الوحدة الأوروبية . ومن ثم فالمفاجآت ممكنة ، ومن الترف الشديد لدولة أو دول لاتملك ثمن الخبز الذى تأكله وتبدده فى اسراف سفيه ، من الترف أن تفكر فى استراتيجية عالمية ومن الوقاحة أن تدعى ذلك .

العامل الثانى هو الحركة الوطنية فى الجمهوريات المسلمة وكيف ستكون استجابة الروس وما احتمالات تطورها .. وحتى الآن فقد فشل الروس فى التعامل معها ، لقد كان أول امتحان للجورباتشوفية مع المسلمين هو تلك المذبحة التى جرت فى باكو ، حيث استخدمت السلطة السوفيتية فى ضرب الحركة الوطنية فى أذربيجان ، كل ما فى الترسانة الاستعمارية من أسلحة تضليل وتمزيق وتخريب ، من الأساليب الموروثة من عهد القيصر المرعب إيفان والسفاح ستالين إلى أحدث ما اكتشفته الكى . بى . جى والسى . آى. إيه ..

ماجرى فى أذربيجان ، هو حركة وطنية مائة فى المائة ، ثورة شعب أعرق فى الحضارة والتاريخ من الروس الذين يستعبدونه . كان الأذربيجانيون وهم من العنصر التركى يشكلون وحدة فى المتحد الإسلامى وإن امتدت بلادهم فى ما يسمى الان تركيا وايران والاتحاد السوفيتى .. وكانوا جميعا من أهل السنة إلى أن قامت الدولة الصفوية فى ايران فاعتنق الأذربيجانيون الواقعون فى دائرة نفوذها المذهب الجعفرى وتقدر نسبة الشيعة فى أذربيجان تحت الاحتلال الروسى بسبعين فى المائة ، « وكل الشيعة فى الاتحاد السوفيتى ٤ ملايين كما يوجد مائة ألف إسماعيلى فى بامير» . وهكذا كانت وحدة المذهب تشدهم نحو إيران ولعلنا نذكر أن آية الله « شريعتى مادارى» كان تركيا أذربيجانيا بينما ربطتهم بتركيا اللغة والجنس . ولا نريد أن نستطرد فى حديث الخلاف السنى والشيعى بين الدولة العثمانية والإيرانية وكيف كان هذا الخلاف هو العنصر الأول الذى مكن روسيا من ابتلاع بلاد «تتار القرم والأوزبك والشيبانيين» ثم اقتطاع واحتلال القسم الإيرانى من آسيا الوسطى . (وإن كان يمكن القول بأن ظروف القهر التى يعيش فيها المسلمون فى الاتحاد السوفيتى لم تترك مجالا للخلافات المذهبية الغبية ، وقد لاحظت فى

بعض التحقيقات التى نشرت فى الصحافة العالمية وتضمنت مقابلات مع الأذربيجانيين ان الرجل اسمه حسين على وابنه اسمه أمية ، كذلك كانت الجوامع تمتلىء بالمصلين يوم الجمعة ، ولا أظن أن مسلمين فى أوضاعهم ، الفرصة الوحيدة المتاحة لهم لاعلان اسلامهم هى صلاة الجمعة ، لا أظن أن مثلهم لديه من السعة ما يسمح لهم بترف الخلاف حول هل تجوز صلاة الجماعة فى غيبة الإمام .. ؟!

وكان علماء الدين الشيعة فى اذربيجان ، يسافرون للتفقه فى الدين على علماء بخارى وطشقند وهما من أهل السنة ، ويبدو أن السلطات السوفيتية تنبهت فقررت فتح مدرسة أو حوزة شيعية فى باكو ، منعاً لانتشار الثورة ، ويقال إن هذا كان ضمن الاتفاقات التى تمت خلال زيارة الرئيس رافسنجانى للاتحاد السوفيتى) .

وكما ذكرنا لم يقاوم الاذربيجانيون كثيرا الاحتلال الروسى فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر بسبب تردى الأحوال تحت حكم القاجار . وعندما انهارت السلطة فى موسكو وبتروجراد عقب الثورة البلشفية ، كان الاذربيجانيون أول من أعلن وطنهم جمهورية مستقلة ، ولكن بسبب من ثورية تلك الجمهورية ، وخشية الإنجليز من امتداد هذه الثورية إلى إيران ذاتها بل والعالم العربى والهند كما كان قادتها المسلمون يحاولون أو على الأقل يعلنون . ولأن بريطانيا كانت تعرف أن روسيا لن تقبل ولن تستطيع الاستغناء عن نفط أذربيجان ، ولو حرمت منه فستشاغب فى نفط إيران ذاتها . لهذه الأسباب ، فقد ساعد الإنجليز الروس على احتلال أذربيجان عام ١٩٢٢ وتحت الاحتلال وبمعونة الجيش الروسى أعلنت أذربيجان انضمامها «الاختيارى» للاتحاد السوفيتى ! وفى خلال الحرب العالمية الثانية شجعت روسيا الأذربيجانيين فى إيران على الانفصال وطلب الانضمام للاتحاد السوفيتى ، لتقع مساومة أخرى ، وفى هذه المرة سلم ستالين هذا القسم من الاذربيجانيين للشاه والإنجليز من فوقه .

وعندما بدأت سياسة جورباتشوف تفك القبضة الحديدية للسلطة السوفيتية ، وهبت كل القوميات المقهورة بلا استثناء تعبر عن نفسها وتتمرد على الوصاية الروسية ، كان من الطبيعى أن تتحرك الأمة الاذربيجانية ، وقد زاد من حماستها ووعيها بهويتها

الحضارية ، نجاح الثورة فى إيران ، وكفاح المجاهدين فى أفغانستان ، وما أشرنا إليه من حركة المقاومة داخل الاتحاد السوفيتى للغزو الاستعمارى لأفغانستان .. ومع البعث الإسلامى الذى يجتاح الجمهوريات المسلمة ، وانبعاث القوميات . والحمد لله ليس لديهم رقعاء يقولون لهم الوطنية هى عبادة التراب ، تشكلت الجبهة الشعبية فى أذربيجان ونظمت المسيرات والمؤتمرات تطالب بالمزيد من الحريات والاعتراف بالحق فى الحفاظ على الدين والهوية وحرية التعامل مع بنى جنسهم الإيرانيين . « وراحوا يهتفون ويلوحون لرفاقهم الايرانيين » وقد جاء فى مقال بمجلة التايم ١٥ يناير ١٩٩٠ بقلم بروس فيلان ، ما يلى :

« ناخيشيفان اقليم يجاور إيران وله استقلال ذاتى يسكنه الاذربيجانيون ولكنه مفصول عن بقية الجمهورية الاذربيجانية بشريط من الأرض الأرمنية . انتظم أهله فى شريط بشرى على طول الحدود الإيرانية ودعوا إلى وحدة القسمين الروسى والايرانى . وبعد أسبوعين ارسلت الجبهة الشعبية انذاراً إلى قوات المخابرات الروسية التى تحرس الحدود : « إذا لم تزيلوا الحواجز والأسوار فإن الجبهة ستمزقها فى ٣١ ديسمبر . وقد قام رجال الكى . جى . بى ببعض التنازلات ففتحت بعض نقط الحدود لعبور رجال الأعمال أو راغبى الزيارة للمقابر (اعتقد العتبات ج) ولكن التهديد نفذ وأجبر رئيس الحزب فى NAKHICHEVAN على الاستقالة . ولكن الأهالى لم يكتفوا بهذا التنازل بل جمعوا الفؤوس ومقصات لقطع الأسلاك الشائكة واتجهوا إلى حيث طلبوا إزالة الحدود التى تفصلهم عن الاذربيجانيين الذين يعيشون فى إيران ، وفى آخر يوم من السنة ١٩٨٩ ضربوا ضربتهم . تجمع حوالى ٧٥٠٠ ومزقوا وأزالوا علامات الحدود وأبراج الحراسة ونقط التفتيش ، وانتشرت هجمات مماثلة عبر ٥٠٠ ميل من الحدود شلت الاتصالات ، فى سلسلة مدن من زنجلين إلى اقليم لنورات على بحر قزوين .

وفى مدينة جليل اباد استولت الجماهير على مقر قيادة الحزب الشيوعى ومحطة البوليس .

وتجمع الآلاف من الاذربيجانيين على شواطئ نهر « آراكس » الحدود الطبيعية بين

إيران والاتحاد السوفيتى ودعوا إخوانهم الإيرانيين للزحف من أجل توحيد وطنهم» .

ولكن إيران ــ كما زعمت مجلة أرامكو ــ «التى تحاول تحسين علاقاتها مع روسيا منذ وفاة آية الله الخومينى بدا أنها احرجت بالاضطرابات . وكان الرئيس هاشمى رافسنجانى قد توقف فى باكو وقال لحشد من الناس ان الاتفاقيات مع روسيا ستسمح بتبادل الزيارات» .

ولا أحد يلوم إيران على تجنب مصادمة مع الاتحاد السوفيتى فى ظروفها الحالية . على أية حال لم تكن هناك استجابة أفضل من بقية العالم الإسلامى .

وإزاء تعاظم الحركة الوطنية فى اذربيجان كان من الطبيعى ومن المتوقع جدا أن تحاول الأجهزة السوفيتية ضرب هذه الحركة الوطنية من خلال اتهامها بأية تهمة إلا الوطنية والتطلع المشروع لتقرير المصير ، وهو الحق الذى يطنطن به الروس من أجل شعب بنين وجزر القمر . أو كما قال مؤلفا كتاب التهديد الاسلامى : «المسلمون فى الاتحاد السوفيتى لا يتصورون أن تصبح اليمن الجنوبية وأوغندا وليبيا دولا مستقلة بينما بخارى العظيمة ليست كذلك» (ص ١٤٨) وماذا لو سمعوا بما بذل من دم ومال المسلمين ، وما يبديه العالم من اهتمام باستقلال البوليساريو !!

وهكذا لجأ جورباتشوف المنتسب للحضارة المسيحية الأوروبية ، المعتز بتاريخ الكنيسة عبر ألف سنة ، لجأ إلى السلاح الصليبى باتهام المسلمين بالتعصب ضد المسيحيين ، وكان الحل هو الأرمن وكما هو معروف فإن ابن آوى جوزيف ستالين ، كان قد دق خابورا فى جمهورية اذربيجان عندما ضم إليها فى ١٩٢٢ اقليم «ناجورنو كاراباخ» الذى تسكنه نسبة كبيرة من الأرمن . وكما ذكرنا يشكل الاذربيجانيون نسبة عالية أيضا فى جمهورية أرمينيا .. بل ووضع جيتو أذربيجانى وسط محيط أرمنى هو اقليم ناخيشيفان الذى تحدثنا عنه . ولم تكن هناك حاجة لذلك ، فتبادل الأرض والسكان مبدأ معروف فى تلك المناطق ومطبق مع الأرمن بالذات من القرن التاسع عشر ومطلع العشرين . فلماذا لم يجعل ستالين الحدود تنطبق على الشعوب إلا لأن هذه هى الاستراتيجية التى تحدثنا عنها أو احتياطات الفتنة التى زرعها ستالين ، أو الفيتو الأرمنى

على حركة التحرر فى باكو ثم طشقند ! وبالطبع نحن متهمون بالتفكير التآمرى .. ولكن تعالوا نتأمل هذه الحقائق :

* الاذربيجانيون يريدون الاستقلال بأرضهم ونفطهم وهو ما يشكل خسارة للدولة والاقتصاد ومكانة الحكومة ، ويفتح الباب لانتشار مطلب الاستقلال فى كل آسيا المسلمة بل والقوميات الأخرى .

* لا الدولة ولا الروس ولا جورباتشوف يقبلون ذلك ولكنهم لا يستطيعون التحرك علنا لضرب حركة وطنية تطلب الاستقلال .

* الأجهزة التى حكمت الاتحاد السوفيتى لسبعين عاما من خلال أقوى وأكبر شبكة عملاء ، هل اختفت هذه الأجهزة وعملاؤها باعلان الجلاسنوت ؟ انهم يتحدثون فى الغرب وروسيا عن احتمال قيام هذه الأجهزة بقلب جورباتشوف نفسه .. فهل يصعب عليها تحريك بعض عملائها من الأرمن والأذربيجانيين لإحداث فتنة تشوه موقف الوطنيين الاذربيجانيين وتعطى هذه الأجهزة المبرر للتدخل بحجة حماية الأرواح وضرب المتعصبين .. ؟ أليس من واجبها الوطنى أن تفعل ذلك مستهدية بالتاريخ الأسود لاسلافها من رجال المخابرات البريطانية الذين رأوا قبل مائة وثمانى سنوات أن من واجبهم الوطنى دفع المالطى لضرب المكارى فى الاسكندرية ، وتقع المذبحة ويعقبها انذار سيمور بهدم الطوابى ثم احتلال مصر سبعين سنة لتخليصها من التعصب وحماية الأقليات ! فما الجديد .. حماية الأقليات هو الممسحة القذرة التى مسحت فيها كل الاستعماريات والديكتاتوريات ، جرائمها ضد الأغلبية .

* الدعاية الروسية تصور القضية بأن الأرمن طالبوا بالاقليم ، فهب الاذربيجانيون يذبحون فيهم ويقتلون ، فكانت المشكلة التى أجبرت الروس على التدخل ! أو هذا ما نشرته صحافة الحقد الصليبى بكل اللغات وفى مقدمتها لغة المستذلين العرب . على حين أن منطق الأحداث يفرض تصورا مخالفا تماما ، ففى الظروف العادية ، وخضوع الجميع للضم القسرى فى أحضان الاتحاد السوفيتى لا أهمية للوحدة الإدارية التى يتبع لها اقليم « ناجورنو كاراباخ » فالكل مواطنون فى الدولة السوفيتية . من يهتم إذا كانت شبرا تتبع

القاهرة أو القليوبية ، ولكن إذا سارت القليوبية فى طريق الاستقلال عندها تطرح القضية ويمكن لكل القوى الراغبة فى استغلالها التحرك ، وهذا ما حدث . فتحرك الاذربيجانيين للاستقلال سابق على فتنة الأرمن وهو الذى حرك المخابرات الروسية ، لاستغلال العنصر الأرمنى ، كما استخدمت اتصالاتهم فى الخارج للحديث عن مذبحة الأرمن المزعومة ، ولعل الذين راقبوا نشاط الأرمن فى الخارج وخاصة حملة الاغتيالات ضد الأتراك ، قد شكوا فى أن تكون هذه الحملة معتمدة على الجهود الذاتية وحدها بل كان من الواضح أن هناك «مساعدة أخوية» من الكى . جى . بى الشقيقة !

المهم تشكلت فى اذربيجان قيادة وطنية أطلقت على نفسها «الجبهة الشعبية لتحرير اذربيجان» واصطدمت بالجهاز الاستعمارى السوفيتى والعناصر العميلة العاملة فيه ، وتمكنت من تصفيته إلى حد كبير ورفعت الأعلام الإسلامية التقليدية أو كما قال مفتى آذربيجان «علم الاذربيجانيين قبل التسلط السوفيتى» قبل أن تطحن الإمبريالية السوفيتية الاستقلال بالمطرقة ، وتحصد الوطنيين بالمنجل وتجعل منهما علما أو رمزا للتسلط والقهر .

رفع الأذربيجانيون علم الاستقلال ذا النجمة والهلال (مثل علم تركيا وباكستان .. ومصر قبل الاستقلال الخ) وكانت العودة لأعلام ما قبل القهر السوفيتى ظاهرة عامة . فكما نقلت وكالات الأنباء (١٩٩٠/٢/٥) انه حتى الروس رفعوا علم روسيا القيصرية الأحمر والأبيض والأزرق بل وصورة آخر القياصرة فلماذا — كما يقول مفتى الثوار — يكون العلم الاذربيجانى هو وحده الشاذ وموضع التشهير ، ويكون الهلال فيه رمزاً للتعصب الإسلامى والفتنة الطائفية والإسلام الأصولى .. الخ إلا لأن الصليبى الروسى يريد أن يثير العداوة التقليدية لدى الغرب ضد الهلال .. فيصرخ فيهم : هلموا : هلال الإسلام رفع فى اذربيجان .. وغدا من يدرى ربما فى باريس كما حذرت مجلة مصرية من خطر قيام حكومة إسلامية متعصبة فى فرنسا إذا سمح للطالبات المسلمات فى فرنسا بلبس الحجاب (راجع مجلة المصور) .

منعت السلطات السوفيتية دخول الصحافة أو الإعلام الأجنبى فى اذربيجان

وروجت أنباء المذابح المزعومة ضد الأرمن ودبرت بعضها .. ثم وقف جورباتشوف يطلب مباركة أوروبا فى الحملة الصليبية المائة لضرب الإسلام الأصولى .. ! وزحف الجيش السوفيتى فأعلن الاذربيجانيون استقلال جمهوريتهم وناشدوا دول العالم الاعتراف بهم ، طلبا للمساعدة والحماية من البرابرة القادمين بالدبابات والطائرات ، ولكن هيهات أن يسمعوا عالما لا تحركه إلا شكوى يهودى أو افتراء ضد مسلم .. وهكذا تخلى عنهم هذا العالم المتبلد الحس الذى لم يقتنع بعد بإنسانية المسلم .. ففتك بهم الروس .. واثنى زعيم العالم الحر الديموقراطى على فعل جورباتشوف !

وتأبى إرادة الله إلا أن تفضح أكاذيب الروس ، فتمتد الثورة إلى طاجكستان وتسارع الأجهزة بشحن بعض الأرمن بالطائرات من باكو إلى دوشانبى عاصمة جمهورية طاجكستان ، ومع هدير الدبابات الروسية تعزف المخابرات السوفيتية معزوفة اضطهاد الأرمن !

وبعـــد

فهذه ليست إلا البداية . بداية صفحة جديدة فى سفر العلاقات الدموية بين المسلمين والروس .. النصر فيها لابد أن يكون من نصيب الشعوب ، حتى لو كانوا من المسلمين ، فقوانين التاريخ لا تميز .. وقانونها الأبدى هو : لا بقاء لامبراطورية ولا خلود لاستعمار بعينه .. «وتلك الأيام نداولها بين الناس» . [آل عمران ـ ١٤٠] .

ويمكن القول بأن مطلب التحرر عام فى جميع الجمهوريات الإسلامية ويتمثل فى هذه المرحلة فى ضرورة الاعتراف :
بالهوية الإسلامية
وحق المسلمين فى نصيب أكبر من ثروات بلادهم ..

وإن كان مطلب الانفصال غير واضح .. الآن ربما لأسباب تكتيكية وربما للإحساس بالعزلة والاختناق ما بين الصين وروسيا وفقدان الدعم العالمى أو كما قال جنكيز آية ماتوف وهو روائى من قيرغيزيا فى حديث مع بعثة مجلة ازامكو :

«الاتحاد السوفيتي استنفد إمكانياته ، ونحن لا نستطيع أن نبقى فى الحضانة إلى الابد . لابد أن نتحول إلى إتحاد أمم ، يجب ألا نفكر بأن الرغبة فى الاستقلال تعنى الدمار . هذا هو التفكير الاستعمارى القديم ، ولكن هناك فارقاً بين وضعنا ووضع جمهوريات البلطيق التى لديها أوروبا خلف ظهرها . وستكون حلقة وصل مهمة بين أوروبا وروسيا . أما نحن فعندنا الصين على عتبة بابنا ، وشئنا أو ابينا إذا أردنا أن نلحق بالمدنية فيجب أن نبقى مع روسيا ولكن قرغيز يجب أن تكون لها حكومة مستقلة لن نقبل المفوض السامى القادم من المركز» .

وقد جمعت المجلة تصريحات أخرى فى نفس الإطار منها :

«بيولوجى من تركمانستان قال : نحن لا نناقش الانفصال فى جمهوريتنا ، ولا توجد لدينا مشاكل عنصرية ، مشكلتنا هى أن روسيا تجعلنا ننتج قطنا أكثر وأكثر فليس لدينا مكان لتربية الماشية ! فهل يمكن لجمهورية تنتج قطنا وغازا ونفطا أن تطعم نفسها ؟!» (واضح أنه لا يعلم شيئا عن دول الخليج التى تنتج نفطا فقط !) وانهى البيولوجى المسلم حديثه بقوله : «أطالب بجمهورية أكثر استقلالا ولكن فى إطار اتحادى» .

ومن كازاخستان تحدث مسئول فى الحزب الشيوعى فقال : «تجارب الأسلحة الذرية كانت تجرى فى جمهوريتنا بدون استشارة الشعب ولذا فهناك تناقض بين الجمهورية والمركز . وهناك أيضا مأساة بحر أورال الذى يقتل . إنتاج وأسعار الصوف والفحم والمعادن والقمح يحددها المركز على حساب خسارة الجمهورية . كازاخستان يجب أن تقرر بنفسها قضاياها الثقافية والاقتصادية مع ترك الدفاع عن الحدود والخطوط الحديدية للمركز» .

أما راقص الباليه «محمود عصام بيه» من «الشيشان» جمهورية الشيشان والانجوش ذات الاستقلال الذاتى فى داخل جمهورية روسيا (الذى لابد انه يتحين أول رحلة للخارج ليلجأ هارباً) فقد قال : «لغتنا معقده ولا يتكلمها إلا ثمانمائة ألف . نحن أمة صغيرة ، والروس يحلون لنا جميع مشاكلنا . لدينا هنا نفط . ولكن لا نستطيع استخراجه بأنفسنا (واضح أنه لم يسافر ولا يقرأ فتعدادهم يعادل تعداد ثلاث دول

خليجية وقد أرسلنا له الكتاب السنوى عن قطر والكويت والشارقة ليعرف أنهم يصلحون لتشكيل دولة عظمى فى الاوابك ج !) .

ومسئول آخر فى الحزب الشيوعى عن اذربيجان قال : «ليس من الضرورى الانفصال عن الاتحاد السوفيتى ولكن نريد استقلالا اقتصاديا . نحن نستطيع الاكتفاء الذاتى مع ذلك فنحن مدينون للمركز بـ ٧ بلايين روبل» .

«جمهوريتنا (طاجكستان) انشئت ١٩٢٤ وخلال كل هذه السنوات لم نحقق شيئا ولكن بدون الاتحاد السوفيتى لا يمكن أن نتقدم ، وضعنا يختلف عن دول البلطيق نحن لا نزيد عن بقرة حلوب للمواد الخام . لكى نقيم المصانع نحتاج الآلات من أين سنحصل عليها لو انفصلنا» .

فنحن نرى أن الحركة لم تصل بعد إلى الانفصال الصريح ، أو لم تصل إلى طرحه ، باعتباره الحل الأوحد ، كما هو الحال فى ليتوانيا أو جورجيا ، وبصرف النظر عن الأسباب ، فمن المؤكد أن دبابات الروس هى التى ستدفع المسلمين فى طريق الانفصال الكامل العلنى ، الذى لا عودة منه على أى حال ، فى الوقت الحاضر هناك إحساس عام باستحالة أن يستمر الوضع على ما هو عليه . والروس أنفسهم يتحدثون عن صيغة جديدة ؛ جورباتشوف يدعو إلى اتحاد حر ومتساو . وهو كلام لا معنى له مادامت هناك قومية كبرى تستطيع إرسال الدبابات ، كلما اختلفت مع جمهورية أصغر .. فلا حرية ولا مساواة إلا حكاية الشركة بين الرجل والحصان التى كنا والهنود نتحدث عنها منذ نصف قرن أو مساواة الحصان مع الخنزير بونابرت التى تحدث عنها جورج أورويل فى مزرعة الحيوان .

وزير خارجيته يقول : يجب أن يتحول الاتحاد السوفيتى إلى اتحاد من دول مستقلة فعلا . ولا نعتقد أن هذا الاتحاد الذى يدعو إليه ، ممكن مع الجمهوريات الأوروبية ، لأسباب عديدة ، منها اغراء الانتماء لأوروبا الغربية المتحضرة الغنية ، وهو الإغراء الذى يجذب هذه الجمهوريات ويحركها للانفصال عن الاتحاد السوفيتى الحالى . ومنها حداثة العهد بالاحتلال الروسى ، فلم تنجح بعد الإمبريالية الروسية فى امتصاص عصير الحياة

من عروقها أو تشكيل اقتصادياتها بحيث تشعر بمخاطر الانفصال عن المركز . ولكن الفرصة ممكنة مع الجمهوريات المسلمة المستقلة .. وعلى قدم المساواة تماما .. ولتكن البداية نوعاً من الكومنولث البريطانى .. إن هذا الحلم الكفيل بقلب الموازين العالمية كلها، هو مطلب عسير جداً ولكنه ليس مستحيلًا ، وقد يأتى عبر الدم والصدام المسلح ، ولكنه يتطلب أيضا ان يتحرر الروسى من أوهام الامبراطورية ، أن يكون إيمانه بالحرية إيمانا حقيقيا ، يصل إلى حد القتال مع المسلم لتحرير الاتحاد السوفيتى كله .. انه الخيار المطروح .. تحالف وصداقة بين المسلمين والروس على قدم المساواة وبالاختيار الحر ، وفى ظل عودة المسيحية إلى روسيا وارتفاع راية الإسلام فى تركستان العريقة بإسلامها ، أو كما نقل على لسان المواطنين هناك «انهم يطلبون أن يشملهم التسامح الذى يعم الآن اليهود والمسيحيين . ويقولون لقد سمحت السلطات للمسيحيين بالاحتفال بالذكرى الألفية لدخول المسيحية روسيا .. فلماذا يطارد الإسلام وحده ؟!» .

إذا كان الروس يريدون فعلا إقامة ديموقراطية رأسمالية فيجب أن يسمحوا بحرية جميع الأديان ، والتخلى عن رسالة الكنيسة الأرثوذكسية ضد المسلمين والكاثوليك واليهود .. !

لقد اعادت السلطات الشيوعية فى أوزبكستان مصحف عثمان للمكتبة الاسلامية فى طشقند ، مع تصاعد المد الإسلامى الذى عبر عن نفسه فى أداء مليون ونصف مليون صلاة الجنازة على أرواح شهداء باكو فى مقبرة الشهداء خلف امام الشجعان مولاى «الله شكور زاده» رئيس المجلس الدينى لعبر القوقاز . ولكن عودة المصحف وحده لاتكفى بل لابد أن تعود للمصحف وشعب المصحف دينه وتاريخه وحقه فى بناء مستقبله بهدى الإسلام من نور مصحفهم .

هذا خيار أمام الروس ..

أما الخيار الآخر فهو الانفصال بالقوة وبعد حرب مدمرة لروسيا تخرج منها دولة متخلفة محصورة ، لا من أوروبا ولا من آسيا .. وما أقل الامبراطوريات التى أحسنت الاختيار !

ولست أجد ما أختتم به هذا الحديث إلا كلمات مفتى المجاهدين الشجعان والشهداء الأبرار الذين ماتوا والمصاحف فى أيديهم كلمات مولاى شيخ الإسلام « الله شكور زاده » والتى يتضح من نبضها وتحديها للطاغية ، أنها كتبت على دوى الرصاص وهدير الدبابات وصيحات الله أكبر التى كان يرفعها المجاهدون الاذربيجانيون وهم يحملون المصاحف فى أيديهم ويواجهون بصلابة خمسة عشر قرنا دبابات الهمج الروس .

وكانت صحيفة الأخبار قد نشرت نص رسالته لجورباتشوف وبعضا من تصريحاته ، جاء فيها :

« مفتى اذربيجان يتحدى جورباتشوف : هدفكم الوقيعة بين المسلمين والمسيحيين ورصاصاتك قتلت آخر الآمال فى البريسترويكا » .

« رغم ما يبدو من أن الأمر قد استتّب لقوات الجيش الأحمر التى غزت اذربيجان فى الأسبوع الماضى ، فإن الموقف مازال بالغ التوتر والتعقيد .. الأعلام السوداء التى ترتفع فى كل مكان حدادا على ضحايا المذبحة الدموية التى ارتكبها الجيش الأحمر فى العاصمة « باكو » وبعض المناطق الأخرى .. دماء الشهداء التى خضبت الأرض لم تجف بعد ولم تزل اثارها .. الغضب وخيبة الأمل والقلق ، مزيج من المشاعر تستغرق كل الناس فى اذربيجان وفى عدد من الجمهوريات الإسلامية المجاورة لها »

« مفتى اذربيجان شيخ الإسلام وزعماء الجبهة الوطنية يبذلون أقصى الجهد لشرح مأساتهم للعالم كله ومطالبة الرأى العام الدولى بتفهم قضيتهم ومساندتهم » .

قال المفتى : « طالما دعونا إلى تحكيم العقل وإلى حل مشاكلنا مع جارتنا أرمينيا بالسلام والديموقراطية حقنا لدماء مواطنينا المسلمين ودماء اخوتنا المسيحيين فى أرمينيا ، ولكن من بيدهم الأمر فى موسكو لم يستمعوا لنا ، بل صعدوا الحملة فأعلنوا حالة الطوارىء ، ثم اقتحمت قوات الجيش الأحمر بلادنا وارتكبت مذبحتها الفظيعة ضد مواطنينا ، فكان ما كان ، وبدا الأمر وكأنه حملة مسيحية ضد المسلمين » .

واضاف المفتى شيخ الإسلام « شكر الله زاده » : « اننى بصراحة أرفض ما أعلنه جورباتشوف حين أشار ذات يوم قريب — قبيل وقوع الأحداث الأخيرة — إلى وجود

ما أسماه بالعامل الإسلامى فى النزاع حول « ناجورنو كاراباخ » .

« قال المفتى : « إننى أنفى نفيا قاطعا وجود هذا العامل الذى تحدث عنه جورباتشوف ، وأؤكد مرة أخرى أنه ليس لدى القيادة فى موسكو أى تصور سليم عن الأوضاع فى بلادنا ، وأن الإجراء الذى اتخذته ــ هذه القيادة ــ والذى استباحت به دماءنا هو إجراء خاطىء ومتسرع ، ولم تكن له أية ضرورة » .

يتحدث المفتى إلى العالم فيفند كل المزاعم والذرائع التى استندت إليها موسكو فى تدخلها العسكرى فى اذربيجان ويقول : « إنه ليس هناك أى طابع دينى للأحداث عندنا كما زعموا ، أما الأعلام التى يرفعها أهلنا والتى تحمل النجمة والهلال ، فإنهم يعرفون ان هذا هو علم اذربيجان قبل التسلط السوفيتى » .

استطرد المفتى يقول : « وأنا أتساءل لماذا يسمحون للأرمن ولجمهوريات البلطيق برفع أعلامهم قبل التسلط السوفيتى ــ ويعترضون فقط على الاذربيجانيين حين يعملون الشىء نفسه ؟! .

واتساءل أيضاً : لماذا ذهب السيد جورباتشوف إلى ليتوانيا ليطلع بنفسه على الأوضاع فيها وكان مرنا للغاية مع مواطنيها ، الذين قابلوه بالمظاهرات والهتافات المعادية على حين لم يصنع معنا نفس الشىء ، ولكنه اكتفى بإيفاد مندوبين عنه نصحوه بالتدخل العسكرى فاستمع لهم دون تمحيص أو تحقيق » .

واضاف : « اننى كعالم دين لم يعد باستطاعتى السيطرة على مشاعر الناس الذين استولى عليهم الغضب والاستياء بعد أن سالت دماء أهاليهم وذويهم فى الشوارع انهارا وبعد أن سحقتهم الدبابات والرشاشات الروسية » .

نــص الرســالة

من شيخ الإسلام .. إلى جورباتشوف

«إن كلماتى لعاجزة عن التعبير عن أسى الشعب الاذربيجانى وكربه الذى لا يعرف الحدود ذلك الكرب الذى حل إلى الأبد فى أفئدة الملايين .

وأقول ذلك ليس لكى تشاطرنا آلامنا وتعرب عن التعازى إذ إن ذلك سيكون إهانة لشعبى كله وإهانة لذكرى أبناء بلدى .

إن الآثام التى اقترفت خلال الأيام الماضية فى باكو لا يقبلها العقل ، فشوارع المدينة ملطخة بدماء مئات من الضحايا الأبرياء وبينهم أطفال ونساء وشيوخ ، وإن الجثث المشوهة تبعث الرعشة فى القلوب . فقد سحقتها جنازير الدبابات وأطلقت عليها النيران من الرشاشات والمدافع الرشاشة . ولا يمكن أن يكون هناك أى تبرير لهذه المجزرة الدموية والجريمة الشنعاء التى حظيت بموافقتك كرئيس للدولة .

إن الشعب الاذربيجانى يرفض بغضب وازدراء الاتهامات الاستفزازية التى وجهت إليه وزعم أنها سبب إدخال القوات وبينها ما يسمى بالعامل الإسلامى الذى زعم أنه خطر على الدولة السوفيتية !

وفى هذا الصدد أود تأكيد ما يأتى :

إن الانتماء إلى الأديان وبينها الدين الإسلامى هو تحد للشيوعية والغطرسة القومية اللتين تعتبران خطيئة .

وأنت تعرف حق المعرفة ، وقد أبلغتك ذلك شخصيا ، أن رجال الدين المسلمين فيما وراء القوقاز كانوا ومازالوا يعتبرون أنه لا يجوز استغلال الأفكار الدينية فى الصراع السياسى والنزعات القومية ، وأنت تعرف حق المعرفة ان الإسلام ، حتى عندما بلغ التوتر أقصاه كان يدعو إلى التعقل والسلام وحسن الجوار . وهذا ما يزيد سخطنا على المزاعم التى تقال فى شأن ما يسمى بالعامل الإسلامى الذى يزعم البعض أنه عامل

لزعزعة الاستقرار . ومن البديهى تماما أن ذلك يستهدف غرضا محددا هو الوقيعة بين المسلمين والمسيحيين الأمر الذى يمكن أن يزيد من ضراوة النزاع القومى .

وأؤكد لكم أننا لن ندخر وسعا لاطلاع الرأى العالمى على الحقيقة كاملة . فالخزى وحده جدير بالبلد الذى تعمد سلطته ، لأغراض النزعة الإمبراطورية ، ليس إلى تهدئة الحزازات بين القوميات بل استثارتها .

البلد الذى حول الجيش إلى سفاح يقتل أبناء وطنه ، إنه بلد للإنسان فيه حقوق فى الموت أكثر من حقه فى الحياة الكريمة .

إن الرصاص الذى أطلق فى باكو ، إنما أطلق على قلوب بشرية حية . إنها رصاصات قتلت فى نفوس ملايين الناس آخر الآمال فى « البيرويسترويكا » .

وأنت بإدخالك قوات التنكيل التى تتصرف تصرف المحتلين ، إنما أسأت إلى سمعة السلطة السوفيتية وأكدت أن مفاهيم مثل سيادة الشعوب وكرامتها غريبة عنك .. لقد أثبت فشلك كقائد سياسى ، وبرهنت أنك أخفقت كزعيم للدولة ، وتبددت الأسطورة عنك كمناضل من أجل السلام .

فمن التجديف أن يطلق هذا اللقب على إنسان يوقع بيد « معاهدات » السلام مع دول أخرى ويبارك باليد الثانية أعمال التنكيل ضد مواطنى بلده .

فى أى حرب ضروس لا يُقتل الأطباء والممرضون ، أما أنت فقد باركت قتل الشعب بما فى ذلك طبيبان هبا لمساعدة اناس يموتون .

وإعرابا عن إرادة الشعب الاذربيجانى أطالب بسحب القوات فورا من باكو . فلا يمكن الحديث بلغة السلاح مع أى شعب ، بما فى ذلك الشعب الاذربيجانى . وقد يستمر ذلك عشرة أيام أو عشر سنين كما حصل فى أفغانستان . وبعون الله تعالى ، وعلى رغم كل شىء ، ستنتصر العدالة التى استشهد فى سبيلها أبناء وبنات شعبى الذين خروا صرعى برصاص الجنود السوفيت .

وأنا إذ أؤمن بذلك إيمانا عميقا أرفع دعواتى إلى العلىّ القدير طالبا الرحمة لأرواح الضحايا الأبرياء والعقاب الصارم للقتلة ولمن دبر جرائم القتل ودفع إليها رافقتنا رحمة الله تعالى .» .

صدقت وبررت .. ورحم الله عبداً قال آمين !

تم بحمد الله تعالى

المحتــويات

رقم الإيداع : ١٩٩٠/٥٢٣٥
طبع بدار نوبار للطباعة